الأمير شكيب أرسلان





خلاصة رحلة المرحوم
السيد أحمد الشريف السنوسي

الأمير شكيب أرسلان / خلاصة رحلة المرحوم السيّد أحمد الشريف السنوسي

إشراف وتحرير: د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١-٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١-٥/٣١١٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http : //www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى / نيسان ٢٠١٠

الأمير شكيب أرسلان

خلاصة رحلة المرحوم
السيِّد أحمد الشريف السنوسي

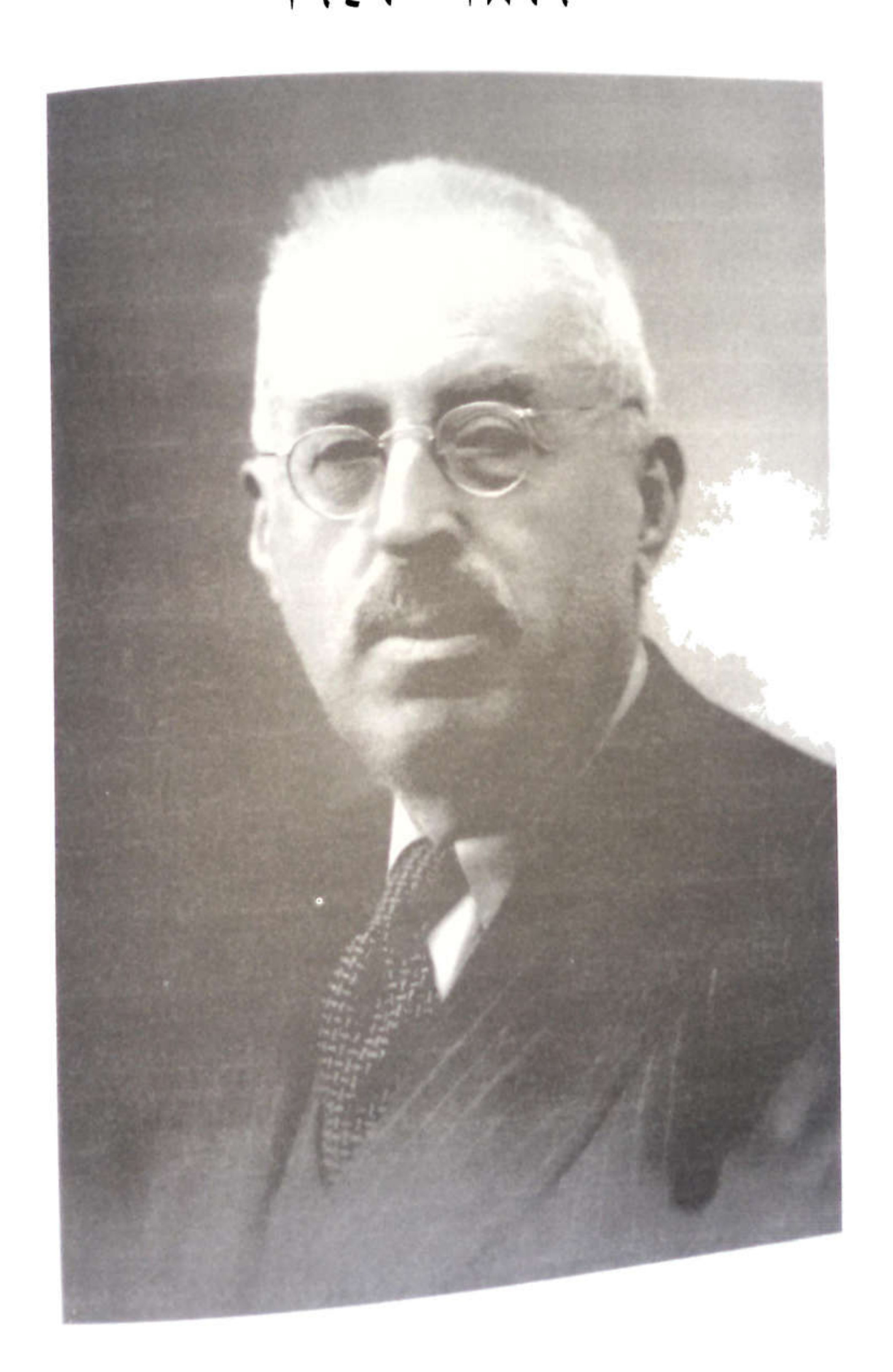
إشراف وتحرير
د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّمية

أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦





السيِّد أحمد الشريف



آخر صورة التقطت للسيِّد أحمد الشريف السنوسي

مقدّمة الناشر

أن تكون عربيًّا، يعني أن تحمل هموم أمّة، بعديد شعوبها وأوطانها. وأن تكون إسلاميًّا، يعني أن تحمل نفحات الإسلام في صدرك لتفتح في مضارب الدنيا أخاديد السلام والوفاق والمحبّة، وشعار محاربة الظلم والاستبداد.

وأن تكون مناضلاً، يعني أنك تتحسّس نضال كلّ الشعوب التي أيقظت فيها شعلةَ الثورة أحكامُ عرْفٍ وقهر، وممارسات غاشمة تقيّد على الإنسان أنفاسه.

وأن تكون إنسانًا، يعني أنك تشعر ببني البشر، فتتألّم لألمهم، وتفرح لأفراحهم، وتشاركهم طموحاتهم وتحقيق أحلامهم.

والأمير شكيب أرسلان، هذا الأمير الإنسان، كان العربي والإسلامي والمناضل المجاهد في آنٍ معًا، تهزّه قضايا إخوته العرب، وتستنهضه حميّة الدين الحنيف، وتعزف طبول النضال على وقع أقدام خيله الثائر على صنوف الاستعمار وقمع الحرّيات على مساحة الوطن العربي والإسلامي.

وعليه، كان من الطبيعي جدًّا لأمير البيان أن يقف إلى جانب الثورة الليبية، وهو الذي لم يتوانَ عن تجنيد فرقة من أبناء جبل لبنان، من الموحّدين الدروز ليقودهم مساندةً للّيبيين في صدّ الغزو الإيطالي لأرضهم.

ولقد تأثّر الأمير شكيب حينها، بمسيرة السيِّد أحمد الشريف السنوسي، وتابع رحلته النضالية، من ليبيا إلى بلاد الحجاز، وقد جعل ذلك في خلاصة مخطوطة سجَّل فيها الحقبة الأخيرة من حياة ذلك السيِّد، وهي عبارة عن

كُتيّب صغير خُطَّ بيد الأمير، (المخطوط هو من محفوظات مكتبة معالي الأستاذ وليد جنبلاط)، راعى فيه الأمير سرد بعض التفاصيل التي تدلّ على عظيم ما كان يمثّله أحد أشهر السادة السنوسيين والهيبة والجزع الذي كان يطرحهما في نفس المستعمر، حتّى عندما نجح هذا الأخير في عزله عن مقاليد السلطة. وإنّنا إذ نثمّن عاليًا هذا الاهتمام الكبير الذي كان يبديه الأمير بالرموز العربية والإسلامية، نشكر العناية التي أوصلت إلينا هذا الأثر، لنحمله بدورنا إلى القرّاء الكرام، بحرفيّته، ليقف على تاريخ مشعّ ومضيء في حياة هذه الأمّة. ولكن، لقارئ اليوم حقّ معرفة بعض ملامح مسيرة ذلك السيِّد السنوسي، والتي نوجزها بما يلي:

- من هو السيّد أحمد الشريف السنوسي؟

زعيم وطني ليبي، ومناضل ضدّ الغزو الإيطالي لبلاده، وُلِد أحمد الشريف السنوسي في واحة الجغبوب في ليبيا عام ١٨٧٣، وهو ابن العلاّمة السيِّد محمَّد الشريف بن محمَّد بن علي السنوسي، وعمّه العالِم محمَّد المهدي السنوسي، وجدّه الإمام محمَّد بن علي السنوسي، ويصل نسبه إلى علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي.

كواحد من كبار المجاهدين الليبيين، جاهد أحمد السنوسي وشارك وقاد معارك الجهاد في سبيل الله والنضال ضدّ الغزاة الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين في تشاد والسودان ومصر وليبيا، وساهم في نشر الدعوة الإسلامية وتعاليم الدين الإسلامي في أرجاء من أفريقيا، وهو صاحب كتاب «السراج الوهّاج في رحلة السيِّد المهدي من الجغبوب إلى التاج» الذي دوّن فيه الرحلات الدعوية التي رافق فيها عمّه السيِّد محمَّد المهدي السنوسي.

من ألقابه: «الشيخ العالِم» و«الداعية» و«المجاهد». ذكره الأمير شكيب أرسلان في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» بقوله: «اتّحدتِ الكلمة على نزاهة هذا الرجل، وتجرّده عن المآرب الشخصية، وعزوفه عن حظوظ الدنيا، وانصراف همّه كلّه إلى الذبّ عن بيضة الإسلام بدون غرض سوى مرضاة الله ورسوله، وحفظ استقلال المسلمين».

ـ زعيم الحركة السنوسية

تزعّم السيِّد أحمد الشريف الحركة السنوسية عام ١٩٠٢، خلفًا لعمّه السيِّد محمَّد المهدي، والد الملك إدريس السنوسي الذي كان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره آنذاك. ويبدو أنَّ صفات السيِّد أحمد الشريف الشخصية وشجاعته التي برزت خلال قيادته لمعارك الجهاد ضدّ الفرنسيين في مناطق «قرو» و«ودان» السودانية قد أهّلته لتولّي الزعامة، فتربّع على عرشها حتّى عام ١٩١٦م، حيث تنازل عنها لابن عمّه محمَّد إدريس بن محمَّد المهدي السنوسي. وفي آب (أغسطس) ١٩١٨ غادر ليبيا مرغمًا على ظهر غوّاصة ألمانية بعثتها له تركيا لتنقله من البريقة بليبيا ليصل لاحقًا إلى النمسا، ثمَّ إلى الآستانة بتركيا.

ـ المجاهد في وجه الغزو الإيطالي

مع بداية الغزو الإيطالي للشواطئ الليبية عام ١٩١١م، كان السيِّد أحمد الشريف قد أعاد تنظيم الحركة السنوسية من خلال الزوايا التي انتشرت في بلدان كثيرة، كما سعى جاهدًا لمدّ جسور التعاون والتناصح مع الحركات الإسلامية الأخرى، وتدعيم وشائج الأخوّة الإسلامية بينها، كما ارتبط أشدّ الارتباط بالخلافة الإسلامية التي كانت تمثّلها الدولة العثمانية في

تركيا، وما إن وصل المستعمر الإيطالي إلى ليبيا حتّى حوّل أحمد الشريف زوايا الحركة السنوسية إلى معسكرات لإعداد قوّة عسكرية من الأهالي والأتباع، بقيادة جماعات من الضبّاط الأتراك، واتّخذ التدابير اللازمة لتزويد تلك القوّات بالأسلحة والعتاد بشتّى الطرق.

وعندما تناهى لأسماع أحمد الشريف اعتزام تركيا إبرام الصلح مع إيطاليا، شكّل وفدًا من زعماء السنوسية وأهالي البلاد وبعثه إلى مدينة درنة لمقابلة «أنور بك»، الوالي العثماني، وسلّمه رسالة خطّية جاء فيها:

«نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحًا بوجه من الوجوه، إذا كان ثمن هذا الصلح تسليم البلاد إلى العدو».

ونتيجة لذلك، وصل مبعوث الوالي العثماني السيِّد عزيز المصري، بصفته ممثّلاً للدولة العثمانية في ليبيا، ومديرًا للعمليّات العسكرية فيها، إلى الجغبوب، «مركز قيادة السنوسية»، وأبلغ السيِّد أحمد الشريف «أنَّ الخليفة قد منح البلاد الاستقلال وحقّ الدفاع عن نفسها وتقرير مصيرها». ولكن مع تذبذب الموقف التركي من مسألة الصلح مع إيطاليا، وتوقيع الدولة العثمانية معاهدة الصلح مع إيطاليا التي تنازلت بموجبها لإيطاليا عن ليبيا، عاد أنور باشا لطرح فكرة القبول بالصلح على السيِّد أحمد الشريف، فكان ردّه أكثر حزمًا، قائلاً: «والله لا نسلّمهم من أرضنا طرّاحة حصان».

وبعد توقيع الدولة العثمانية «معاهدة لوزان» مع إيطاليا، والتي سلَّمت تركيا بموجبها ليبيا إلى إيطاليا، بادر أحمد الشريف بإعلان الحكومة السنوسية لسدّ الفراغ المترتّب على انسحاب القوّات التركية من البلاد، وكان شعار تلك الحكومة «الجنّة تحت ظلال السيوف». ثمَّ أعلن الجهاد في منشور

عمّه على مشائخ الزوايا السنوسية والقبائل والأهالي، وطلب من كلّ فرد من سنّ ١٤ إلى ٦٥، أن يذهب إلى الميدان مزوّدًا بمؤونته وسلاحه.

ومع توالي الهزائم التركية في البلقان، أصدرت القيادة التركية أوامرها بضرورة الانسحاب النهائي من الأراضي الليبية، فقرّر أحمد الشريف إثرها الانتقال بقوّاته التي بلغت حينئذٍ السبعة آلاف مقاتل، إلى منطقة أمساعد على الحدود الشرقية مع مصر، ممّا فرض ظروفًا وأوضاعًا جديدة على المنطقة، وبخاصّة بعدما تبيّن أنَّ السيِّد أحمد الشريف قد نجح في تحويل القوّات السنوسية إلى جيش نظامي مدرَّب، مستعدّ لخوض غمار حرب فدائية طويلة المدى ضدّ الطليان.

عند اشتداد معارك الجهاد، وبسط إيطاليا وجودها على أجزاء من ليبيا، كلَّف المجاهد الداعية السيِّد أحمد الشريف أخاه المجاهد الكبير صفي الدين السنوسي بقيادة منطقة غرب برقة والتنسيق مع قيادات طرابلس وفزان في محاربة العدوّ الإيطالي، وفعلاً ترك السيِّد صفي الدين أجدابيا وتحرّك مع كثير من المجاهدين إلى جهة سرت، واتصل هناك بالعديد من قادة الجهاد الليبي، أمثال المجاهد الكبير رمضان السويحلي وأحمد بك سيف النصر وغيرهم.

- الحرب الكونية الأولى

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، تعزّز موقف السيِّد أحمد الشريف وقوّاته، فسارعت الأطراف المتحاربة لكسب ودّ تركيا وألمانيا من جهة، وبريطانيا ومصر من جهة أخرى؛ فالأولى رغبت أن يقوم السيِّد أحمد الشريف بتخفيف الضغط على إيطاليا بمهادنتها، وبفتح جبهة جديدة ضدّ

الإنجليز في السلوم، والأخرى رغبت في مساعدة السيِّد أحمد الشريف للقضاء على الطليان، العدوّ الرئيسي للسيِّد أحمد الشريف آنذاك.

وبسبب الضغوط الشديدة التي مارستها الدولة العثمانية عليه، بالإضافة إلى الانتصارات الألمانية ـ العثمانية على قوّات الحلفاء في أوروبا، وظهور الثورات الشعبية ضدّ الإنجليز في كلّ من الهند وأفغانستان والسودان، اختار أحمد الشريف أن يقوم بالإغارة على قوّات الإنجليز في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥م داخل الحدود المصرية، وهزمهم في السلوم، ولاحقهم حتّى منطقة سيدي برّاني حيث اندمج بقوّاته مع القوّات الوطنية المصرية بقيادة محمّد صالح حرب، ولكنّ القوّات البريطانية تمكّنت من صدّ الهجوم في معركة العواقير ١٩١٦م التي أُسر فيها جعفر العسكري، وهرب فيها نوري باشا وعبد الرحمن عزّام. وواصل السيِّد أحمد الشريف القتال من المحور الجنوبي واحتلّ عددًا من الواحات، وسارع للاتصال بالسيِّد علي دينار، سلطان دارفور بالسودان، ومشائخ الصعيد في أسيوط والفيّوم، محاولاً تكوين جبهة عريضة لقتال الإنجليز.

خاض السيِّد أحمد الشريف بقوّاته معارك عدّة كان آخرها معركة «بئر تونس» التي اضطُرّ إثرها للتراجع والانسحاب، وذلك بسبب عدم استجابة زعماء القبائل في الفيّوم والصعيد ودارفور من جهة، وفشل قوّات جعفر العسكري واستسلامه من جهة أخرى، فضلاً عن التباين الكبير بين القوّتين؛ فبينما كانت قوّات السيِّد أحمد الشريف تقاتل ببنادق عادية، وعلى ظهور الخيل، وفي أرض مكشوفة، استخدم الإنجليز المدفعية والطائرات. ولن ننسى أن نضيف إلى كلّ ذلك صعوبة التموين، بل وانقطاع موارده عن القوّات السنوسية.

وهاجمت قوّات الحركة السنوسيّة ـ (وعديدها عشرة آلاف مجاهد) ـ بقيادة أحمد الشريف، القوّات الاستعماريّة البريطانية في الصحراء الغربيّة المصريّة عند السلوم. واستمرّ القتال بين السنوسيين والبريطانيين إلى عام ١٩١٧م، وهو العام الذي انتصر فيه البريطانيون بقيادة الجنرال بيتون (Peyton) على قوّات المجاهدين.

وكانت حملة السلوم نهاية المطاف في صراع السيِّد أحمد الشريف ضدّ الإنجليز في ليبيا، وقد بادروا بتهديده بضرورة ترك الجغبوب فورًا، تحت طائلة ضرب وتهديم ضريح قبر جدّه الأكبر محمَّد بن علي السنوسي بالطائرات واحتلال المدينة.

فغادر السيِّد أحمد الشريف البلاد إلى المنفى في أوائل آب (أغسطس) ١٩١٨م على متن غوّاصة ألمانية من «مرسى العقيلة»، ومعه كبار معاونيه وقادته منهم، محمَّد صالح حرب ونوري باشا وصالح أبو عرقوب البرعصي وعبد الوهّاب الدرسي. أمّا باقي الأتباع في ليبيا، وعلى رأسهم عمر المختار، فقد انسحبوا إلى الجبل الأخضر، ومنهم من استدعاه للّحاق به مثل الشيخ القاضي محمَّد عزّ الدين الباجقني، حيث كان كاتبًا للشيخ أحمد الشريف (بعض الروايات تقول إنَّه هاجر معه في الوقت عينه)، وقد كان إبعاد السيِّد أحمد الشريف انتصارًا للأطراف المعادية لنضال الشعب الليبي كافّة.

وصل السيِّد أحمد الشريف إلى ميناء «بولا وتريستا»، ومنه إلى النمسا، ثمَّ بالقطار إلى استانبول، حيث استُقبل استقبالاً حافلاً تدعيمًا لمواقفه وصموده، وقلّده السلطان محمَّد السادس السيف «علامة السلطنة»، ومنحه وسامًا مجيديًا، وأنعم عليه برتبة الوزارة.

ـ في المنفى

إثر استقراره في المنفى، أخذ أحمد الشريف يحرّض العثمانيين على إعطاء القضية الليبية الأهمّية القصوى، وقد نجح بالفعل في إقناع عزّت باشا، رئيس الوزراء آنذاك، في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨م، بأن يسمح له بالسفر خفية إلى طرابلس بعد تزويده بالمعدّات والسلاح والأموال، إلاّ أنَّ اتفاق هدنة الحرب العالمية الأولى حال دون إنجاح المهمّة. ومع ذلك، فقد انتقل السيِّد أحمد الشريف ورفاقه من استانبول إلى بروسه، استعدادًا للعودة إلى برقة، إذا ما أخفقت جهود السلام.

وحتّى بعد أن اضطُرَّ لمغادرة البلاد، استمرّ أحمد الشريف في متابعة حركة الجهاد، والعمل على تأمين ما يستطيع من احتياجات المجاهدين، ولعلَّ المهمَّة التي أوكلها إلى محمَّد أسد هي إحدى صور هذا الجهد الذي كان السيِّد أحمد يبذله من المنفى لتقديم الدعم إلى المجاهدين. ولم تنقطع مراسلاته مع المجاهدين حتّى السنوات الأخيرة من الجهاد، بعد استشهاد "شيخ الشهداء" عمر المختار، والتي كانت تحتوي على توجيهات إلى المجاهدين، بخاصّة الرسالة المؤرّخة في ١٦ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ، التي انتدب فيها السيِّد أحمد، المجاهد الكبير يوسف بورحيل المسماري لتولّي القيادة بعد استشهاد عمر المختار.

أدّت نتائج الحرب العالمية الأولى إلى الانقسام في تركيا بين الخليفة في الآستانة، وأنور بك في القوقاز، ومصطفى كمال أتاتورك في الأناضول، وحاول كلٌّ منهم اجتذاب السيِّد أحمد الشريف إلى جانبه باعتباره زعيمًا دينيًّا موثوقًا، وذا شعبية كبيرة في تركيا، ولكنَّ أحمد الشريف اتّخذ موقف الحياد إزاء الزعماء الثلاثة، وإن كان يميل إلى أنور باشا في أحاديثه الخاصّة،

وكان الأخير قد وعده بتسهيل عودته إلى برقة بالسلاح والرجال والأموال إذا ما نجح في حسم الصراع لصالحه، وكان ذلك غاية ما يتمنّاه السيِّد أحمد الشريف.

وقد بلغت ثقة الأتراك بالسيِّد أحمد الشريف حدًّا جعل «مجلس المبعوثان» يصدر قرارًا بتعيينه ملكًا على العراق في نيسان (أبريل) ١٩٢١م، ولكنَّ فيصل بن الحسين، وبدعم من الإنجليز، نجح في الوصول إلى العراق قبله. ويذهب بعض الباحثين إلى أنَّ مصطفى كمال أتاتورك قد عرض الخلافة على السيِّد أحمد الشريف ولكنّه رفضها متعلِّلاً بأنَّ أحوال العالم الإسلامي آنذاك لا تشجّع على اتّخاذ مثل تلك الخطوة.

شهدت سنتا ١٩٢١ و١٩٢٢ تحرّكًا سياسيًّا واسعًا للسيِّد أحمد الشريف، محاولاً خلق جبهة إسلامية عريضة تضمّ الخديوي عبَّاس (مصر)، وعبد العزيز آل سعود (أمير نجد)، وأحمد الجابر الصباح (أمير الكويت)، والحسن الإدريسي (أمير عسير)، وحميد الدين (إمام اليمن)، هدفها تحرير العالم العربي الإسلامي من الاستعمار الإيطالي والإنجليزي والفرنسي، ثمَّ انتقل إلى سوريا محاولاً إثارة الشعور الديني، محرّضًا أهلها على العمل لطرد الفرنسيين بمساعدة الأتراك، غير أنَّ الفرنسيين كشفوا تحرّكاته وطردوه إلى تركيا عام ١٩٢٤م.

وعلى أثر الانقلاب الذي قاده مصطفى كمال أتاتورك، وإلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م، أدرك السيِّد أحمد الشريف أنْ لا مكان له في دولة أتاتورك العلمانية، فانتقل إلى الحجاز بعد أنْ سُدَّت في وجهه أبواب البلاد العربية الأخرى.

- إقامته في الحجاز

شكّلت الفترة الممتدّة من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٣٣م جانبًا مهمًّا في حياة السيِّد أحمد الشريف السنوسي في المنفى، حيث أقام في الحجاز مستفيدًا من العلاقة الخاصّة التي كانت تربطه بعبد العزيز بن سعود، وبدا محرِّكًا وقائدًا للمقاومة والجهاد في الداخل، والتي كان يقودها في المنطقة الشرقية للبلاد عمر المختار، ويعاونه قجّة بن عبد الله السوداني، والفضيل بو عمر، ويوسف بورحيل، وحسين الجويفي، وعبد الله بو سلوم، وعبد الحميد العبار، وقد تبقّى من العائلة السنوسية بعد رحيل السيِّد إدريس السنوسي عام ١٩٢٣م إلى مصر، كلّ من محمَّد الصديق والسيِّد محمَّد الرضا والحسن الرضا.

ومن الروايات التي نقلها الأمير شكيب أرسلان في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» عن عبد العزيز جاويش المقرَّب من أحمد الشريف، أنَّ ضابطًا إيطاليًّا برتبة عقيد طلب مقابلة السيِّد أحمد الشريف عندما كان في مرسى تركيا سنة ١٩٢٤، وهو يستعدّ للرحيل إلى الحجاز، ولكنَّ السيِّد أحمد رفض الحديث معه بشكل قاطع عندما علم أنه يعرض عليه فكرة عقد صلح بينه والحكومة الإيطالية، وكان جوابه «إنَّنا لا نكره الصلح، ولكن على شرط الاستقلال الحقيقي لوطننا». وعندما علم أنه لم يكن مفوَّضًا من قِبَل حكومته أنهى المقابلة معه على الفور، وحتّى بعد أن تمكّن العقيد الإيطالي من الحصول على التفويض من حكومته رسميًّا، حاول التفاوض مع أحمد الشريف عن طريق معاونه عبد العزيز جاويش، إلاّ أنَّ أحمد الشريف كان حازمًا في توجيهاته لمعاونه التي ختمها بمقولته الشهيرة: «إنَّ طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود بهما على الطليان، بل هما ملك أهلهما».

وفي ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٦م، نجح السيِّد أحمد الشريف في عقد معاهدة بين إمام اليمن يحيى وإمام عسير الحسن بن علي الإدريسي، وملك الحجاز عبد العزيز آل سعود[1]، أنهى بموجبها الخلافات والحروب الدائرة في المنطقة، وكان هدفه من ذلك القضاء على تلك الحروب الجانبية التي تستنفد الكثير من جهود المسلمين حتّى يلتفتوا جميعًا إلى العدوّ «الإنجليزي والإيطالي والفرنسي» الذي كان يحتلّ جزءًا كبيرًا من العالم الإسلامي.

وظلَّ السيِّد أحمد الشريف طوال فترة إقامته في الحجاز متفرِّغًا لدعم المجاهدين في الداخل، وكان يتّخذ من مواسم الحجّ والعمرة وسيلة للاتّصال بالليبيين، ويستقبل الرسل الوافدة إلى مكّة من قادة الجهاد، يزوّدهم بالتوجيهات والتعليمات، وكذلك بالإمدادات، كما جعل من مواسم الحجّ منبرًا إعلاميًّا يحثّ المسلمين منه على دعم القضية الليبية ويجمع التبرّعات منهم.



المجاهد أحمد الشريف السنوسي في القدس

(١) نذكر هنا الدور الكبير الذي لعبه الأمير شكيب أرسلان في هذا الإطار.

ـ الشريف كما رآه الأمير شكيب أرسلان

نصَّ كتاب الأمير شكيب أرسلان على ما يلي: «عندما قدمت إلى الآستانة في أواخر سنة ١٩٢٣م، وهي أول مرّة دخلتها بعد الحرب، قرّرت، لأجل الاستجمام من عناء الأشغال وترويح النفس بعد طول النضال، أن أسكن ببلد صغير تتهيّأ لي فيه العزلة وتسهل الرياضة، ويكون دانيًا من وطني سورية لملاحظة شغلي الخاصّ، وتعهّد أملاكي فيها، فاخترت مرسين، وألقيت مرساة غربتي فيها.

وكان السيِّد السنوسي بلغه قدومي إلى دار السعادة، فكتب لي يرغب إليّ في سرعة المجيء ويرحّب بي. فلمّا جئت إلى مرسين، ذهبت توًّا لزيارته، فأبى إلاّ أن أنزل عنده، ريثما أكون استأجرت منزلاً في البلدة. وقد رأيت في هذا السيِّد السند بالعيان ما كنت أتخيّله عنه بالسماع، وحقّ لي والله أن أنشد: (من البسيط)

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

حتّى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن ممّا قد رأى بصري

رأيت في الرجل حبرًا جليلاً، وسيِّدًا غطريفًا، وأستاذًا كبيرًا، من أنبل من وقع نظري عليهم مدّة حياتي؛ جلالة قدر، وسراوة حال، ورجاحة عقل، وسجاحة خلق، وكرم مهزة، وسرعة فهم، وسداد رأي، وقوّة حافظة، مع الوقار الذي لا تغضّ من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رياء ولا سمعة.

سمعت أنه لا يرقد في الليل أكثر من ثلاث ساعات، ويقضي سائر ليله في العبادة والتلاوة، والتهجّد، ورأيته مرارًا تنفجّ بين يديه السُّفَر الفاخرة

اللائقة بالملوك، فيأكل الضيوف والحاشية، ويجتزئ هو بطعام واحد لا يصيب منه إلاّ قليلاً، وهكذا هي عادته.

وله مجلس كلّ يوم بين صلاتَي الظهر والعصر لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربة. فيأمر بحضور مَن هناك مِن الأضياف ورجال المعيّة، ويتناول كلٌّ منهم ثلاثة أقداح شاي ممزوجًا بالعنبر. فأمّا هو، فيتحامى شرب الشاي لعدم ملاءمته لصحّته، وقد يتناول قدحًا من النعناع.

ومن عادته أنه يوقد في مجالسه غالبًا الطيب، وينبسط السيِّد إلى الحديث، وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم، وسِيَر سلفه السيِّد محمَّد بن علي بن السنوسي، والسيِّد المهدي، وغيرهما من الأولياء والصالحين. وإذا تكلَّم في العلوم قال قولاً سديدًا، سواء في علم الظاهر والباطن.

وقد لحظتُ منه صبرًا قلَّ أن يوجد في غيره من الرجال، وعزمًا شديدًا تلوح سيماؤه على وجهه، فبينما هو في تقواه من الأبدال، إذ هو في شجاعته من الأبطال. وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيرًا من الوقائع بنفسه، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على التوال بدون كلال. وكثيرًا ما كان يغامر بنفسه ولا يقتدي بالأمراء وقوّاد الجيوش الذين يتأخّرون عن ميدان الحرب مسافة كافية بأن لا تصل إليهم يد العدوّ فيما لو وقعت هزيمة. وفي إحدى المرار أوشك أن يقع في أيدي الطليان، وشاع أنهم أخذوه أسيرًا، وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله، وهو أنه كان ببرقة، فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أنَّ السيِّد في قلّة من المجاهدين، وغير بعيد عن جيش الطليان، فسرّحوا إليه قوّة آلاف عدّة ومعها كهرباة خاصّة لركوبه، إذ كان اعتقادهم أنه لا يُفلت من أيديهم تلك المرّة، فبلغه خبر

زحفهم، وكان يمكنه أن يخيم عن اللقاء أو أن يتحرَّف بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم، فلم يفعل، وقال لي: «خفت أنني إن طلبت النجاة بنفسي أصاب المجاهدين الوهل، فدارت عليهم الدائرة، فثبت للطليان، وهم بضعة آلاف بثلث مائة مقاتل لا غير، واستمات العرب وصدموا العدو، فلمّا رأى وفرة من وقع من القتلى والجرحى ارتدّوا على أعقابهم، وخلصنا نحن إلى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين».

والسيِّد أحمد الشريف سريع الخاطر، سيَّال القلم، لا يملّ الكتابة أصلاً، وله كتب عدّة، منها كتاب كبير أطلعني عليه في تاريخ السادة السنوسية، وأخبار الأعيان من مريديهم والمتّصلين بهم، ينوي طبعه ونشره، فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين».

- وفاته

توفّي السيِّد أحمد الشريف يوم الجمعة في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٥١هـ الموافق ١٠ آذار (مارس) عام ١٩٣٣م بالمدينة المنوّرة، ودُفن في مقبرة البقيع، فخلفه السيِّد إدريس السنوسي.

هذا ما تحصَّل لدينا من معلومات عن الأمير السنوسي، والتي جاءت بلسان التأريخ لتحيي آثار زمنٍ مضى، ولا نخال أنفسنا سوى متأسّفين بحقّ على ذلك العصر الذي كانت فيه الكلمة نبراس عنفوان وكرامة، والإرادة الصلبة للشعوب أداة نافذة في تغيير لعبة الأمم... والأقدار!

الدار التقدّمية

في، ٢١ آذار ٢٠١٠

خلاصة رحلة المرحوم السيّد أحمد الشريف السنوسي (رضي الله عنه)

منذ خروجه من مرسين في أواخر ربيع الأول ١٣٤٣ إلى أن لقي ربّه

في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ١٣٥١،

عندما جاءنا خبر انتقال السيِّد إلى جوار ربّه، كتبنا إلى مَن نعلمه أمينًا لسرّه، وملازمًا لخدمته، ورفيقًا له في سفره وحضره، نقترح عليه أن يبعث إلينا بخلاصة رحلة السيِّد رحمه الله، منذ فارقناه في مرسين، إلى أن أتمّ أنفاسه الأخيرة، فجاءتنا من هذا الرفيق الأمين الخلاصة التي اقترحناها عليه، والتي تشتمل على حياة السيِّد بدقائقها في هذه السنوات التسع الأخيرة، ولا يمكن أن يعرفها أحد غير مَن أشرنا إليه، لأنه كان ملازمًا لصاحب هذه الترجمة من الأوّل إلى الآخر، ولقد وجدنا فيها بعض التطويل فآثرنا الاختصار فيما لم نجد الاختصار فيه مخلاًّ بالمعنى، قال:

كان خروج السيِّد من مرسين في أواخر ربيع الأوّل ١٣٤٣، وكان سبب الخروج هو أنَّ حكومة مصطفى كمال بعد فوزها وخلعها للخليفة عبد المجيد، وإقدامها على ما أقدمت عليه من إلغاء الشريعة واضطهاد القائمين بها، بدت فيها تغييرات غريبة نحو سيادة السيِّد، وقطعت عنه معاشه الذي كان مرتّبًا له، وأخذت تراقب ما يرد عليه من الخطابات، وأمرت باسترجاع بعض الجنود الذين كانت جعلتهم بمعيّة سيادته، فلمّا سمع العرب الذين في تلك النواحي، طرسوس ومرسين وأطنة، بهذه المعاملة التي بدأت حكومة مصطفى كمال تعامل بها السيِّد، اجتمعوا وقالوا: إذا كانت الحكومة قطعت

مرتّبات السيِّد فإنَّنا نحن نقوم بذلك لسيادته. ويظهر أنَّ الحكومة علمت بقرار العرب هذا، فأعادت ما كان جاريًا من الأرزاق والدراهم كالعادة، واعتذرت عن هذه المعاملة ولكن عذرًا واهيًا.

ثمَّ بعد مضي مدّة يسيرة قصد السيِّد أحد التلاميذ المنتسبين إلى العلم يطلب منه الإعانة بمقدار من الدراهم بحجّة أنه قاصد إلى مصر لإتمام دروسه في الجامع الأزهر، مع أنه تركي لا يعلم من العربية شيئًا، وكان هذا الشابّ من أزمير واَسمه محمَّد فوزي، وكان طلبه هذا من السيِّد بواسطة ياور السيِّد، وهو اليوزباشي أحمد جودت النابلسي الذي هو اليوم عند إمام اليمن قائد لإحدى الفرق العسكرية، فما قدّر الله له ساعتئذٍ شيئًا من جهة الدراهم، فقال: إذن تكتبون لي كتابًا إلى الأمير سليم ابن السلطان عبد الحميد، وهو في ذلك الوقت مقيم في بيروت، ورغم أنه بواسطة الأمير المشار إليه يصل إلى غرضه، فكان من قدر الله أن وصل هذا الخبيث إلى مراده وكتب الياور له كتابًا وختمه بختم مولانا السيِّد وسلّمه إيّاه، فتوجّه هذا الشابّ ومعه الكتاب قاصدًا إلى بيروت، فلمّا وصل إلى الإسكندرونة برًّا فتّشوه على الحدود، فوجدوا معه هذا الكتاب، فكبّلوه في الحديد وأرسلوه حالاً إلى أنقرة، ورفعوا الكتاب إلى الحكومة، فاجتمع المجلس الملّي وعقد جلسة على هذا الكتاب، ووجد المفسدون فرصة وقرّروا إخراج السيِّد من تركية بحجّة أنه متشيِّع لآل عثمان، وكان مصطفى كمال في ذلك الوقت غائبًا عن أنقرة في بلاد الأكراد، فأبلغت الحكومة هذا القرار إلى السيِّد بواسطة والي مرسين ولم يُعطَ من المهلة إلاّ عشرة أيام.

وكان السيِّد قد حصل على رخصة من الفرنسيس يوم كان الجنرال غورو في سورية بأن يذهب ويزور الشام ويعود إلى مرسين، ولم يستعمل

إذ ذاك هذه الرخصة، فلمّا صدر الأمر بخروجه بتلك العجالة استفاد من تلك الرخصة وطلب من قنصل فرنسة في مرسين الإشارة عليها فلبّاه، ولو كان عالمًا بالحقيقة لما وضع الإشارة اللازمة، ولأمكن السيِّد أن يدخل سورية، فكان ذلك من ألطاف الله، فخرج من مرسين ومعه إخوانه وخدّامه وترك أثاثه في مرسين وخلف مَن يقوم عليه من خدّامه، ووصل إلى أطنة وقت العصر من آخر ربيع الأوّل، فنزل في أحد الفنادق وبات تلك الليلة في أطنة، وكان يومئذٍ متألِّمًا من رِكَبه لا يقدر على المشي، وفي اليوم التالي ركب القطار إلى حلب فلمّا وصل إلى الحدود جاء المفتّشون للتفتيش، وكان مع السيِّد وخدّامه أسلحة إلاّ أنَّ القائد التركي على الحدود كان من ذوي الحميّة فصرف النظر عن تفتيش حقائب السيِّد وقام بواجب احترامه وودّعه حزينًا باكيًا. ولمّا دخل السيِّد المنطقة الإفرنسية طمس الله على أعين المفتّشين ولم يعثروا على سلاح.

وثاني يوم، نصف الليل، وصلنا إلى حلب ونزل السيِّد في أوتيل بارون المشهور وأقام ثلاثة أيام زار في خلالها مسجد سيِّدنا زكريا ثلاث مرّات، ووفد عليه جماهير للسلام على سيادته برغم تخوّف الناس من الحكومة الإفرنسية. ثمَّ إنَّ السيِّد أبرق إلى الشيخ توفيق الهبري في بيروت يخبره بأنه قادم إليها، فشاع الخبر في بيروت واستعدّ الناس لاستقبال السيِّد، فرأت الحكومة أنَّ مجيء السيِّد إلى بيروت ذلك اليوم قد يحصل منه تشويش، فأرسلت إليه ترغّبه في زيارة دمشق وأنه بعد ذلك يزور بيروت، فذهب السيِّد إلى دمشق بعد أن أبرَقَ إلى سموّ الأمير سعيد الجزائري، فلمّا وصل إلى المحطّة، وكان ذلك في نصف الليل، وجد الأمير سعيد في الانتظار ومعه خلق كثير، ولو كان الوصول نهارًا لكان الأمر أعظم، ونزل في بيت حضرة

الأمير بالصالحية وبقي سبعة أيام، ثمَّ أرسل إلى القنصل الإنكليزي وطلب منه الفسح لزيارة القدس الشريف فأجاب طلبه، وخرج السيِّد من دمشق متوجّهًا إلى بيروت قيامًا بوعده الذي أعطاه لأهلها بالقدوم إليها، فلمّا وصل إلى بيروت وجد في استقباله أمّة عظيمة، وأسرع الناس من كلّ جهة للسلام عليه وأقفلوا مخازنهم، ونزل عند الشيخ الهبري وبقي أربعة أيام، ثمَّ توجّه قاصدًا فلسطين بالسيَّارات، فكان أهل القرى التي يمرّ بها يجتمعون محتفلين بقدومه، وما زال هكذا حتّى وصل إلى عكّة وقت المغرب، فوجد عددًا لا يحصى من الأهالي في انتظاره، وبات تلك الليلة في عكّة، وفي الصباح خرج متوجّهًا إلى القدس. وكان الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى وعدد كبير من وجوه القدس قد خرجوا لاستقباله وتلاقوا معه في الطريق، ولمّا وصل إلى القدس نزل في بيت الحاج أمين الحسيني وبات تلك الليلة، وفي الصباح زار المسجد الأقصى والصخرة الشريفة وأغلب مقامات الأنبياء عليهم السلام، كما أنه زار بعض المدارس والتكايا وبعض الكنائس، ثمَّ توجّه لزيارة الخليل، على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام، وبقي بالخليل يومين ثمَّ رجع إلى القدس، وفي رجوعه زار بيت لحم، مهد سيِّدنا عيسى عليه السلام، وكان الوقت وقت العصر وقد حان وقت الصلاة، فأمر السيِّد المؤذّن فأذّن في داخل الكنيسة وصلّى العصر بها، وبعد الصلاة قال له أحد الرفاق: يا سيِّدي، أتجوز الصلاة داخل الكنيسة؟ فقال له السيِّد رضي الله عنه: يجوز يجوز.


أحمد أمين الحسيني

ثمَّ ركب السيِّد إلى القدس وبات به، وفي الصباح توجّه لزيارة نبيّ الله موسى عليه السلام، ولمّا رجع من تلك الزيارة جاء أحد الضبّاط من قبل الحاكم الإنكليزي وقال لسيادة السيِّد: يقول لك الحاكم، بناءً على ما بلغت من قبل حكومة لندن، لا يمكنك الإقامة بالقدس زيادة على أربع وعشرين ساعة. فقال له السيِّد: قل له قد تمّت زيارتنا للقدس ولله الحمد، وغدًا نسافر إن شاء الله إلى دمشق. وفعلاً سافر في الصباح ووصل إلى نابلس وقت العصر ونزل بها قليلاً، ثمَّ استمرّ في سيره إلى طبرية وبات بها، وفي الصباح قطع حدود فلسطين وبات في قرية حقيرة بها مغاربة من جماعة الأمير سعيد الجزائري، وكان الأمير المشار إليه مرافقًا للسيِّد في هذه الرحلة، ثمَّ وصل إلى دمشق وبقي سبعة أيام في دار الأمير سعيد، فلمّا رأى الفرنسيس كثرة تردّد الناس إلى السيِّد طلبوا منه أن يعود إلى تركية، فطلب منهم مهلة عشرين يومًا، فأذنوا له بالبقاء هذه المدّة لكن على شرط أن يسكن في قريته خارج دمشق، فخرج إلى إحدى قرى الأمير سعيد وانقضت المدّة ولم يسافر، فجاءه إنذار من الفرنسيس بأنه إن لم يسافر عائدًا إلى تركية فالحكومة تخرجه بالقوّة، فعند ذلك استدعى السيِّد قنصل إنكلترة فجاء إلى سيادته، فطلب السيِّد من القنصل التسريح بالمرور إلى الحجاز عن طريق فلسطين، فقال له القنصل: أمّا فلسطين، فالحكومة الإنكليزية لا ترضى، وأمّا الحجاز، فالشريف علي لا يرضى بمجيئك إليه. وكان الشريف علي محصورًا في جدّة، فقال له السيِّد: إذًا إلى مصر. فقال القنصل: ملك مصر لا يرضى. فقال له : إذًا إلى اليمن. فقال: الحكومة الإنكليزية لا ترضى. فقال: الهند. فقال: وذلك من باب أَوْلى. فقال: إذًا إلى العراق برًّا. فقال: ملك العراق لا يرضى. والحاصل أنَّ كلّ محلّ للحكومة الإنكليزية فيه يد لا تدخله بناءً

على ما بُلّغت. فعند ذلك غضب السيِّد غضبًا شديدًا وقال له: إذًا مفاتيح الدنيا كلّها بيدك، أنسيت أنَّ حاكم الأرض والسماء هو الله وأنَّ الأمر بيده؟ أمّا أنا، فسيجعل الله لي مخرجًا، وأمّا الحكومة الإنكليزية، فسيأتي يوم تندم فيه على هذا الفعل. فعند ذلك قال القنصل للسيِّد: عندكم طريق نجد، وقصد بذلك الاستهزاء، فقال له السيِّد: أمّا هذه، فلا حاجة لوساطتك فيها، وأمّا كونها صعبة، فإنّني لم أعوّد نفسي التنعّم والترفُّه، بل عوّدتها التقشّف واقتحام المشاق في سبيل الدفاع عن ديني ووطني، ولولا ذلك لكنت مثل الذين باعوا دينهم بدنياهم.

وأسمع السيِّد القنصل المذكور كلامًا مؤلمًا، فخرج محمرّ الوجه تعلوه علائم الغضب، وباشر السيِّد التأهّب للسفر عن طريق نجد، فحصل الأمير سعيد الجزائري على ثلاث سيَّارات كلّ واحدة تَسَع ستّة أشخاص، وكان إيجار كلّ واحدة منها خمسة وسبعين جنيهًا ذهبًا، والحال أنَّ السيِّد لم يكن في يده إيجار واحدة منها فضلاً عن الثلاث، وبينما هو في هذا الضيق أتته أمانة مرسلة من جانب الشهم العربي الكريم الشيخ جاسم ابراهيم، أحد كبار التجّار في الهند، بعث بها المشار إليه بواسطة سموّ الأمير شكيب أرسلان، ومقدار هذه الأمانة أربعمائة جنيه، ففرجت عن السيِّد هذا الكرب العظيم وتمَّ أمر السفر، واستدعى السيِّد دليلَيه، أحدهما بدويّ والآخر حضريّ، وخرج من الشام بعد إقامة شهرين فيها، وكان خروجه آخر جمادى الأولى سنة ١٣٤٣، وسار قاصدًا الجوف، آخر الحدود النجدية، وكان معه من الرفاق خمسة أشخاص لا غير وهم، حضرة خليفته ووزيره الشيخ محمَّد بن عبد الله الزويني، شيخ زاوية سيوه سابقًا، وشيخ زاوية المدينة المنوّرة حالاً، وهو من رؤساء المجاهدين المخلصين، وكاتبه وخادمه عبد المالك بن عبد القادر بن علي الدرسي، وخادمه عبد الحميد بن عمران بن

الكيلاني بن حدوت، شيخ مشايخ قبيلة البراعصة المشهورة، وصالح بن الشيخ محمَّد العبيدي، من قبيلة العبيد التي كانت اليد اليمنى للمجاهد الكبير الشهير سيدي عمر المختار وخادمه الأمين اسحق بن إدريس.



شيخ الثائرين عمر المختار

ثمَّ إنَّنا بعد خروجنا من الشام بتنا في الطريق وقال الأدلاّء إنَّنا بهذه الليلة نصل إلى الجوف، ففرحنا، ولكن بقدر الله تعالى خلّ الأدلاّء الطريق ووصلنا إلى جبال بقرب قريّات الملح، فلمّا علم الأدلاّء أنهم تاهوا وأخبروا السيِّد، أَمَر بالنزول وبتنا في تلك الجبال ونحن حيارى، ثمَّ سرنا راجعين إلى الوراء وما زلنا نرجع إلى الوراء حتّى رأينا إبلاً سارحة، فأسرعنا إلى سؤال راعيها فدلّنا على ربعه وركب معنا إلى الحيّ، وهم من أحياء قبيلة الرولة، واسم شيخ هؤلاء محجم، وكان من الموالين لسلطان نجد، فلمّا نزلنا عليهم أكرمونا غاية الإكرام، وفي الصباح أرسل الشيخ محجم اثنين من رجاله يرافقان السيِّد إلى الجوف، فسرنا طول النهار وبتنا في الطريق، وثاني يوم صباحًا بدت لنا جبال الجوف، فدخلنا من نقب هناك معروف، لأنَّ الجوف يقابلها جبال عظيمة من جهة الشام، وكان دخولنا البلدة وقت صلاة الجمعة وباب السور مغلق، فلمّا سمع المصلّون حركة السيَّارات قطعوا الصلاة وخرج العسكر ورتّبوا المدافع في القلعة، وحمل كلّ بندقيّته وجاؤا يسألوننا: مَن أنتم؟ فقال لهم رجال الشيخ محجم: نحن ضيوف. فلم يصدّقوا، وهجموا علينا ونهبوا ما معنا وأدخلونا إلى القصر كأننا مساجين!

وكان أمير الجوف الأمير عبد الله بن عقيل، وهو قائد الحملة التي قضت على ابن رفادة أخيرًا، فلمّا تحقّق وعرف أنَّ السيِّد هو السيِّد السنوسي قال له: أنت سلطان الغرب، أنت المجاهد المحارب للطليان، فلمّا تحقّق وعرف أنَّ السيِّد هو السيِّد السنوسي قال له: أنت سلطان الغرب أنت المجاهد المحارب للطليان قال له: نعم أنا أحمد الشريف السنوسي فقال له: حيّاك الله على خير الله ثمَّ خير عبد العزيز ابن سعود، ثمَّ إنَّ الأمير أمر بإرجاع أمتعتنا لنا وإطلاق سراحنا وأنزلنا بدار ضيافته وأكرم السيِّد غاية الإكرام ثمَّ سأل

السيِّد: هل سلمتم من الغزو؟ قال له السيِّد: ما رأينا أحدًا قط، فقال له: يا شيخ أنت نيّتك طيّبة، من ثلاثة أيام توجّهت من عندنا حملة عظيمة قاصدة قبيلة الحويطات وأنتم أتيتم على طريق هذه الحملة فسبحان مَن سلمكم منها. فتحقّق لنا بعد ذلك أنَّ اليوم الذي ضللنا فيه الطريق هو اليوم الذي سارت فيه تلك الحملة، وكان شائعًا أنَّ الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن، نيّته الهجوم على الجوف بالسيَّارات فلو صادفناهم ذلك اليوم لصار ما لا يخطر على البال، فكان خلالنا الطريق من الألطاف الإلهية، وأعظم منه وصولنا إلى الجوف وقت الصلاة، إذ لم يكن لهم عهد بالسيَّارات، فلو دخلنا ولم يكن الناس في المسجد لكان كلّ إنسان رمى بالرصاص على السيَّارات بدون مشورة، ففرح الأمير بسلامة السيِّد فرحًا عظيمًا وقال له: يا شيخ أنت أمرك غريب غريب!

ومن الألطاف الإلهية أيضًا أنَّ السيِّد كان قد كتب لجلالة الملك عبد العزيز بن السعود منذ ثلاث سنوات قبل ذلك التاريخ قائلاً له: ربّما نأتي إليكم بطريق البرّ، فنرجو إصدار أمركم إلى الأمراء الذين على الحدود توصية بنا، فوجدنا هذه التوصية عند الأمير عبد الله بن عقيل، وعددنا ذلك من الكرامات لسيادة مولانا السيِّد.

ثمَّ إنَّ الأمير قال للسيِّد: أنتم الآن تبقون عندنا ضيوفًا حتّى نرسل ونخبر أمير حائل لأنه مرجعنا وهو أمير المنطقة الشمالية، فكتب عبد الله بن عقيل كتابًا، وكتب السيِّد كتابًا، وأرسلوا نجابًا بالكتب إلى حائل، وأبقى الأمير الخبراء والسيَّارات تحت الحجز لأنه ما أعجبهم فتح هذا الطريق للسيَّارات.

ثمَّ بعد خمسة عشر يومًا رجع النجاب يحمل كتابًا من الأمير عبد العزيز بن مساعد أمير حائل، وأحد أفراد العائلة السعودية، وهو يرحّب بكتابه بسيادة السيِّد ويأذن له في القدوم إليه، ويأمر برجوع الخبراء والسيَّارات إلى دمشق، فرجعت السيَّارات بعد اثنين وعشرين يومًا.



الملك عبد العزيز آل سعود

وهيّأ أمير الجوف للسيِّد الزاد والإبل والرفاق وسرنا قاصدين حائل. وخرج الأمير لوداع السيِّد وواصلنا السير مدّة أحد عشر يومًا، وكان السيِّد يشعر بألم شديد في رجليه ولا يقدر على المشي، ولكن هذا الألم صار يتناقص شيئًا فشيئًا، ووافق هواء نجد صحّة السيِّد كثيرًا وصار يمشي كلّ يوم مقدار ساعة وأكثر. وما زلنا حتّى وصلنا بقرب حائل، وهناك بتنا خارج البلدة، وعند الصباح عندما أردنا الركوب، وجدنا حقيبة السيِّد الخاصّة مشقوقة بسكّين ومنهوبًا بعض ما بها، فأخبرنا مولانا السيِّد فاستحضرها وعرف ما أُخذ منها، وكان ذلك ساعة ذهب مرصّعة أهداها إلى السيِّد الخليفة عبد المجيد عندما كان وليّ عهد السلطنة، وساعة ثانية مرصّعة أيضًا أهداه إيّاه خالد باشا بن درويش باشا، صهر آل عثمان، وخمس ساعات ذهب أخرى، وستّة أو سبعة خواتم ثمينة. فقال لنا السيِّد: لا تخبروا أحدًا حتّى نصل إلى الأمير. ولمّا صرنا على مقربة من حائل وجدنا في انتظارنا جمًّا غفيرًا من الخلق، فرحّبوا بالسيِّد، ولعبت الفرسان على ظهور الخيل، وأطلقوا البارود، إلاّ أنَّ حضرة الأمير لم يخرج بنفسه،

بل لم يخرج من مجلسه حتّى دخل عليه السيِّد وهو على منصبه، والحقيقة أنَّ هذه الحالة لم نلقها من أحد، ولا من جلالة الملك نفسه، ولا نعلم هل هذه من عوائدهم أو هي من كبر الأمير، ولكنّه كان يكرم السيِّد ويولم له الولائم الكبار، وفي هذه الولائم كان يرافق السيِّد إلى حيث يجلسه على المائدة ولكنّه لا يأكل معه.

وكان في حائل الشيخ عبد الله بن بليهد، شيخ مشايخ نجد في العلوم الشرعية، فزار السيِّد ثلاث مرّات، فكان يلقي على السيِّد أسئلة والسيِّد يجيبه عليها بالأجوبة السديدة إلاّ أنه لم يكن يقتنع، فلمّا رأى السيِّد أنَّ لا سبيل لإقناعه قال له: يا شيخ، إنَّني في الحقيقة لست ممّن تصدّى للعلم وأجهد نفسه في طلبه حتّى وصل إلى الحقائق التي وصلتم إليها، وإنّما تصدّيت للجهاد في سبيل الله منذ كان عمري إحدى وعشرين سنة، ولك أن تسألني عن الحرب وضروبها وما لاقيته فيها وما وقع لي وعليّ. فعند ذلك قال له ابن بليهد: بارك الله فيك! هذا لا يحتاج إلى سؤال وأعمالكم مشهورة يشهد بها الخاص والعام، وهنيئًا لكم بهذه المزيّة. وهكذا انتهت المحاورة بينهما.

وكان مراد السيِّد أن يذهب أولاً إلى المدينة، إلاّ أنَّ المدينة يومئذٍ كانت محصورة والجنود النجدية لم تكن احتلّتها، فعدل السيِّد عنها إلى مكّة المكرّمة، وبعد أن أقام بحائل عشرة أيام استأذن الأمير بالسفر إلى مكّة، فهيّأ له الأمير الزاد والجِمال. أمّا السرقة، فلم يحصل بها الاعتناء الكافي وضاع كلّ ما سرق.

وخرج السيِّد من حائل في ١٠ رجب ١٣٤٣، وفي آخر يوم من رجب وصلنا إلى قرن المنازل، ميقات أهل نجد والعراق، وأقمنا به يومنا وأحرمنا

منه بعمرة، ثمَّ واصلنا السير إلى الزيمة في ثالث شعبان، وأهل الزيمة يقال لهم آل عبد المحسن القناوية، وكبيرهم اليوم الشيخ أحمد بن عبد المحسن، وهم في الأصل أشراف إلاّ أنهم لم يتظاهروا بهذه النسبة لأمر ما. وكانت عين الزيمة منقطعة منذ سنوات، ولحقهم من جرّاء ذلك تعب شديد، فكانوا يطلبون من السيِّد الدعاء برجوع العين، فقال لهم: سترجع بحول الله تعالى وقوّته أحسن ممّا كانت. وكان السيِّد أرسل اثنين من رجاله إلى جلالة الملك في مكّة يخبره بقدومه، فلم يجداه في مكّة، فقصداه حيث كان في الرغامة، فصدر أمر جلالته إلى حضرة الشيخ حافظ وهبه بأن يستقبل السيِّد بالنيابة عن جلالته، فاستقبله عند عين الشرائع بقرب وادي حنين المشهور، ثمَّ واصلنا السير إلى جبل النور الذي فيه غار حرَّاء الذي كان يتعبّد فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فوجدنا هناك سُرادِقًا[1] مضروبًا أعدّته الحكومة للسيِّد، فتناول فيه الغداء. ثمَّ جاءت عربة يجرّها حصانان وتوجّه إلى مكّة ودخل المعابدة بموكب عظيم، ومن المعابدة أخذ الطريق المسمّى بالحجون ودخل إلى حارة جرول، وهنا اغتسل السيِّد من ماء بير طوى عملاً بالسنّة ودخل مكّة من طريق الشبيكة، وفي الأصل الدخول من الحجون والخروج من طريق الشبيكة، لكن هذه لمن يقدم من جهة المدينة وجدّة، وأمّا القادم من جهة نجد والعراق، إذا أراد الاغتسال من بير طوى فإنَّه يفعل ما فعل السيِّد. ثمَّ دخل السيِّد الحرم المكّي الشريف من باب السلام المشهور، ووجدنا خدّام الحرم والأغاوات وبعض الجنود مصطفّين، وبأيدي الأغوات البخّور والسرج، فمشوا مع سيادته حتّى ابتدأ الطواف، فقبَّل الحجر الأسود ثمَّ بدأ يطوف، وكان مطوّفه التركي الملقّب بالشربتلي توفّي منذ ثلاث سنوات

---

(١) الفسطاط الذي يُمدّ فوق صحن البيت.

رحمه الله، وبعد تمام الطواف وقف في الملتَزم وتمسّك بأستار الكعبة وصار يدعو بأعلى صوته والناس خلفه يؤمّون، ثمَّ صلّى ركعتي الطواف خلف مقام سيِّدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام، ثمَّ خرج إلى المسعى ووقف في الصفا هنيهة ودعا ثمَّ أُحضر له حصان فسعى عليه، وكان ينزل في المروة والصفا عند نهاية كلّ شوط ويطلع الدرجة ثمَّ ينزل ويركب ثانيًا، هكذا حتّى تمّم السبعة الأشواط، ثمَّ بعد تمام السعي نزل في المدرسة الداودية التي كانت أُعدّت لنزوله، ووفد الناس عليه السلام وبقي سبعة أيام فيها. ثمَّ جاء الدكتور عبد الله الدملوجي من قِبَل جلالة الملك عبد العزيز ودعاه إلى الرغامة حيث كان الملك، وركب السيِّد ومعه خمسة عشر من رجال الملك وأحضروا له العربة لركوبه. ولكنَّ العربة، من كثرة الرمال، عجزت الخيل عن سحبها، فجعلوا بدلاً عنها الجِمال تجرّ العربة، ولم يكن في ذلك الوقت سيَّارات كهربائية في الحجاز.

ووصل السيِّد إلى الرغامة، فوجد أولاً أنجال جلالة الملك الأمير محمَّد والأمير خالد، ثمَّ استقبله الأمير عبد الله أخو جلالته، ولمّا قرب السيِّد من خيمة الملك نزل من العربة واكتنفه أنجال الملك ثمَّ خرج جلالة الملك نفسه، أيّده الله، لاهجًا بالتحيّة والترحيب وقابله خارجًا عن السرادق بمقدار خمسين خطوة وتصافحا ثمَّ تعانقا، ثمَّ أخذ الملك بيد السيِّد وأدخله السرادق، وبعد المحادثة قليلاً وتناول القهوة قام الملك وأخذ بيد السيِّد ورافقه حتّى أوصله إلى المضرب المعدّ لنزوله وقال له: استريحوا لأنكم في تعب من السفر. وبقي مولانا السيِّد في ضيافة الملك معزّزًا مكرّمًا مقدار سبعة أيام، وهو في كلّ يوم يجالسه مرّة في الصباح ومرّة في المساء، وكانت قنابر [1]

(١) قنابل.

جيش الملك علي المحصور في جدّة تصل إلى المخيّم السعودي، لكنّهم لم يكونوا يعبأون بها، ولم يكن رادًّا لأهل نجد عن دخول جدّة إلاّ الأسلاك الشائكة التي يسمّونها الشبردق. ثمَّ إنَّ السيِّد أهدى إلى الملك بعض أدوات حربية منها، سيف عجيب، وجنبيّة مرصّعة، وناظور، ومسدّس ألماني مذهّب ومكتوب عليه اسم السيِّد، وكذلك الملك أهدى إلى السيِّد كسوة فاخرة على زيّ أهل نجد، وأهدى أيضًا إلى رفاقه.

ثمَّ بعد هذه المدّة، استأذن السيِّد في الرجوع إلى مكّة فأذن له الملك، ونزل هذه المرّة في بيت من بيوت الشريف علي باشا أمير مكّة سابقًا، وبقي إلى أن آن وقت الحجّ، فأدّى الفريضة. وبعد الحجّ أقام بمكّة بقيّة ذي الحجّة وشهر محرّم فاتح سنة ١٣٤٤.



الشيخ أحمد الجابر الصباح

وفي آخر محرَّم استأذن السيِّد من جلالة الملك في زيارة الطائف فأذن لسيادته، وأصدر أوامره الكريمة بإحضار ما يلزم له من الزاد والركائب، وبعث معه أحد أخصّائه المسمّى هذلول، وقد كان هذا سابقًا مرافقًا للأستاذ الريحاني [١] في رحلته وقد ذكره الريحاني في كتابه، ولمّا وصل السيِّد إلى الطائف كان أميرها عبد

(١) المقصود الأديب أمين الريحاني.

العزيز ابن ابراهيم، أمير المدينة المنوّرة الآن، قد خرج لاستقباله بالخيل والرجال ودعاه إلى دار الإمارة، ونزل السيِّد بها أولاً ثمَّ استأذن من الأمير أن ينزل في الزاوية السنوسية في الطائف نظرًا لكثرة الناس الذين معه. وبقي السيِّد في الطائف عشرين يومًا، في خلالها تمشّى في بساتينها وأدب له الأمير عدّة مآدب، ثمَّ عاد السيِّد إلى مكّة وكان مراده زيارة المدينة المنوّرة إلاّ أنها كانت يومئذٍ لا تزال تحت الحصر، فاستأذن السيِّد جلالة الملك في زيارة السادة الأدارسة، فأذن له وزوّده بأكمل الزاد وأرسل معه الرفاق. وخرج السيِّد من مكّة أواخر ربيع الأول سنة ١٣٤٤، راكبًا شُقْدُفًا[1]، وبه ذهب إلى اليمن وبه رجع، وبقينا ذلك الليل بطوله على ظهور الإبل، وثاني يوم الساعة الثالثة عربية، وصلنا إلى محلّ يقال له البيضاء، فاسترحنا قليلاً ثمَّ تقدّمنا ونزلنا عند حيّ يقال لهم المجانين، وهم بأجمعهم تابعون للسادة السنوسية.

وسبب هذا الانتساب أنَّ من هؤلاء رجلاً كان يقال له الشيخ حامد بن محمَّد، صحب السيِّد محمَّد ابن علي السنوسي، مؤسِّس الطريقة السنوسية، وخدمه خدمات جليلة، فلمّا رجع السنوسي الكبير إلى الغرب وسكن الجغبوب، أقام هذا الشيخ في الحجاز نائبًا عنه، فصارت جميع الزوايا السنوسية في مكّة والمدينة والطائف وجدّة وبدر والينبع وغيرها تابعة له، فقام رحمه الله بهذه الخلافة أحسن قيام، وسلك مسلك أستاذه، والتفّت حوله خلائق لا تحصى، وكانت له لدى أمراء مكّة وأشرافها المنزلة العليا لما كان عليه من تمام الاستقامة، وكان يقوم بالإصلاح بين القبائل والجميع يستمعون له، وكانت القضيّة التي لا تحلّ عند السنوسي لا تحلّ في مكان

---

(١) الشُقْدُف: مركب معروف بالحجاز، وهو أكبر من الهودج.

آخر، وكان الأمر الذي يصعب على الحكّام حلّه كثيرًا ما يحوّلونه إلى زاوية السنوسي، والناس كانوا يفضّلون مراجعة الزاوية لأنها لم تكن تكلّف أحدًا شيئًا، فكانت تنظر في دعاويهم مجّانًا، بل كانوا ينزلون فيها ويجدون من الإكرام ما يدهشهم.

ثمَّ إنَّ الشيخ حامد هذا جاء وزار السيِّد السنوسي الكبير في جغبوب، وكان سبب هذه الزيارة أنَّ السيِّد السنوسي كان أبقى ولديه، السيِّد محمَّد المهدي ومحمَّد الشريف، عند الشيخ حامد في مكّة، ثمَّ بعد أن عاد إلى جغبوب أرسل فطلب ولده الكبير السيِّد المهدي، ثمَّ بعد ذلك أرسل بطلب ولده الثاني السيِّد الشريف، فجاء الشيخ حامد مع السيِّد الشريف إلى الجغبوب ثمَّ رجع إلى محلّه بمكّة. ولمّا توفّي السيِّد السنوسي الأكبر وقام بعده برئاسة الطريقة ولده السيِّد المهدي، أقرّ الشيخ حامد على خلافته في الحجاز، وبقي فيها إلى أن توفّاه الله في السنة الثالثة من القرن الرابع عشر عن عمر ناهز الثمانين قضاه في خدمة الإسلام والمسلمين، فرحمه الله رحمة الأبرار، وترك أربعة أولاد ذكور أكبرهم اسمه محمَّد السنوسي، سمّاه على اسم أستاذه، ثمَّ سيدي علي وسيدي عبد الله، وسيدي محمَّد الشارف. فأقام السيِّد المهدي السنوسي الشيخ محمَّد ابن الشيخ حامد مقام أبيه، فاقتدى بأبيه في كلّ شيء، وكان السيِّد المهدي يقول إن لم يكن فوق والده لم يكن دونه، وبقي في تلك الخلافة تسع عشرة سنة وزار الجغبوب والكفرة مرارًا.

ولمّا توفّي السيِّد المهدي رضي الله عنه، وخلفه صاحب هذه الترجمة السيِّد أحمد الشريف، أقرّ الشيخ محمَّد بن حامد على الخلافة السنوسية بالحجاز، وكان هذا الشيخ، سنة اثنتين وعشرين من القرن، ذهب وزار

السادة السنوسية في الكفرة، وبعد وصوله بقليل توفّي إلى رحمة الله ودفن في مقبرة العائلة السنوسية، وخلف من الأولاد الذكور اثنتين، محمَّد السنوسي ومحمَّد الصادق. فأمّا محمَّد السنوسي، فتوفّي بلا عقب، وأمّا محمَّد الصادق، فهو موجود وله ذرّية. فأقام السيِّد أحمد الشريف خليفة له في الحجاز الشيخ علي أخا الشيخ محمَّد بن حامد، فاجتهد اجتهادًا عظيمًا، ولكن في أيامه حصلت الحرب العامّة وجرى ما جرى من تغيّر الأحكام وتداول الحكّام، فكان هذا الشيخ يداري الأمور ويتجنّب الحكّام ما أمكن، وبقي في هذه الخلافة إلى سنة تسع وأربعين من القرن، واستخلف السيِّد أحمد الشريف في محلّه أخاه الشيخ محمَّد الشارف، وهو الآن القائم بهذه الخلافة.

ونعود إلى ذكر قبيلة المجانين، وهم من أفخاذ قبيلة حرب، انتقل جدّهم إلى مكّة من ديار حرب واتّحد مع قبيلة لحيان، فصار الجميع قبيلة واحدة وصاروا خدّام الزاوية السنوسية.

ثمَّ إنَّنا لمّا نزلنا عندهم احتفلوا بالمرحوم السيِّد احتفالاً لا يوصف، فأقام السيِّد عندهم ذلك النهار، وبعد العشاء تعدّينا وادي يلملم، ميقات أهل اليمن، والآن يسمّونه السعدية، وبقينا نسري الليل كلّه، فأصبحنا في الخضراء، ثمَّ من الخضراء تقدّمنا إلى بلدة الليث، فنزلنا بها ووجدنا بها أحد أمناء جلالة الملك عبد العزيز، وهو المسمّى الشيخ علي العماري، نجدي الأصل استوطن الحجاز مشتغلاً بالتجارة، وهو من ذوي الأخلاق الحسان، فأكرم السيِّد غاية الإكرام، لا سيّما أنه في أثناء وصولنا إلى الليث هطلت أمطار غزيرة إلى الغاية، وسالت السيول وتعذّر السير، فبقينا في الليث ثلاثة أيام.

وفي هذه البلدة أمير من قبل جلالة الملك من الأشراف ذوي حسن، إلاّ أنَّ هذا الأمير المبارك لم يقم لسيِّدنا السيِّد بواجب، لا في الذهاب ولا في الإياب. ثمَّ توجّهنا إلى القنفذة، وبينها وبين الليث أربع مراحل، فأصبحنا في مكان يقال له نجيعة، ثمَّ رحلنا منه وأصبحنا في وادٍ يقال له وادي دوقة، ثمَّ رحلنا منه وأصبحنا في محلّ يقال له الأحسبة، وبين وادي دوقة والأحسبة سوق تعمر في الجمعة مرّة، وهي باقية على عادة العرب القديمة. ثمَّ وصلنا إلى القنفذة، وهي بلدة على شاطئ البحر الأحمر تضاهي جدّة في التجارة، إلاّ أنَّ جدّة غلبت بقربها من مكّة. وفي القنفذة أمير من قبل جلالة الملك اسمه عبد الله بن سويلم، وهو رجل مسنّ وصاحب خُلُق حسن، ففرح بسيادة السيِّد كثيرًا وعمل له عرضة، ومعناها الاستقبال على ظهور الخيل، ونزل السيِّد في دار الحكومة ثمَّ تحوّل إلى بيت أُعدّ له، فبقينا يومين ثمَّ خرجنا إلى وادي حلي، وهو في أول إمارة الأدارسة، فجاء أحد رجال جلالة الملك، وهو المسمّى سعيدان، ورافق السيِّد ومعه رجاله ووصلنا إلى محلّ يقال له عمق، ثمَّ قمنا من عمق وأصبحنا في بلدة البرك، وهي على ساحل البحر بها مرفأ عظيم للسفن الشراعية التي تأتي من مصوع والحديدة وسواكن، وأغلب أهلها يتعاطون التجارة، وأهل البلاد قبيلة يقال لها بنو هلال، وأميرهم أكرم السيِّد إكرامًا زائدًا إلاّ أنه كان يكره الأدارسة ويريد الظهور عليهم، فنصحه السيِّد بأن لا يفعل فلم يقبل النصح، وصمّم على أن يذهب إلى مكّة ويطلب قوّة من جلالة الملك، ولكن بعد خروجه بليلة واحدة هلك بسبب هين ودفن بين بلده والقنفذة. هذا ولم نقم في البرك أكثر من ليلة، وأصبحنا في محلّ يقال له القحمة، وهي أيضًا مرفأ على شاطئ البحر تأتيها السفن الشراعية والبواخر أيضًا، وأهلها قبيلة كبيرة تسمّى

المنجحة وأغلبهم يسكن الجبال ويقال إنَّ عددهم عشرة آلاف مسلّح، واستقبل أميرهم سيادة السيِّد بما يجب.

ورحلنا من هناك إلى محلّ يقال له وادي الأبيض، ثمَّ رحلنا إلى محلّ يقال له الشقيق، أميره من رجال السيِّد الإدريسي وكان يقال له أحمد بن يحيى، فاستقبل مولانا السيِّد استقبالاً عظيمًا. وقمنا من الشقيق فأصبحنا في بلدة يقال لها الدهناء، وأهلها يقولون إنَّهم سادة لكنّني لا أعرف إلى مَن ينتسبون. ومن الغرائب أنَّ أهل هذه البلدة عندهم حمل الحطب عيب كبير، فبعد نزولنا عندهم أحضروا لنا كلّ لوازم الضيافة إلاّ الحطب، فبقينا إلى وقت الظهر ننتظر الحطب ولا نجده، وأخيرًا جاء غلام صغير وقال الحطب موجود، أرسلوا أحد خدّامكم يأخذه، فقلنا له: لماذا لا ترسلونه أنتم؟ فقال: لولا أنكم غرباء وضيوف لعاملناكم بما تستحقّون، إنّكم بهذا تسبوننا، فقلنا: إنّنا نجهل عوائدكم. وكذلك من عوائدهم أنهم لا يتركون أحدًا يتعدّى من قريتهم راكبًا، بل لا بدَّ أن ينزل عن دابته إلى أن يخرج من البلدة فيعود ويركب. على أنَّ هذه العوائد درست الآن بعد دخول النجديين.

ثمَّ رحلنا من الدهناء وليس أمامنا إلاّ صبيًّا، مقرّ السادة الأدارسة، ومنذ خروجنا من الدهناء بدأت الناس تقبل أفواجًا أفواجًا، فصار السيِّد في خلائق لا تحصى، وبات السيِّد في محلّ قريب من البلد.

وأوّل مَن استقبل السيِّد من الأدارسة هو السيِّد عبد الوهاب، أخو السيِّد علي حاكم البلاد، وكان عمره لا يتجاوز الثالثة عشرة، إلاّ أنَّ الله اختصّه بذكاء عجيب وخُلق حسن وشجاعة تامّة.



الحسن بن علي الإدريسي

وصبيًّا هذه بلدتان: صبيًّا البالية، وصبيًّا الجديدة، وبينها مسافة قليلة، وضريح الأستاذ الكبير السيِّد أحمد بن إدريس هو في صبيًّا البالية. وكان السيِّد محمَّد بن علي الإدريسي استوبأ صبيًّا البالية لكثرة الحمّى التي فيها، واستجدّ صبيًّا الجديدة، والحقيقة أنَّ هذه البلدة إن قام بها غريب لا بدّ أن يصاب بالحمّى، وقد أصابت مولانا السيِّد إلى أن خفنا عليه الهلاك يومئذٍ ثمَّ أخذت تخفّ عنه ثمَّ تعاوده ولم تزل به إلى أن كانت سببًا لانتهاء حياته رضي الله عنه، هذا وقد نزل السيِّد في صبيًّا البالية وعملوا له استقبالات عظيمة، وجاء السيِّد الحسن الإدريسي من صبيًّا الجديدة سرًّا وسلّم على السيِّد واعتذر عن عدم خروجه لاستقباله بسبب أنه مسجون في بيته بأمر ابن أخيه، وطلب من السيِّد إرشاد ابن أخيه السيِّد علي وردّه إلى الطريق الذي به جمع الكلمة وإصلاح البلاد، فوعده مولانا السيِّد بالسعي وقال له: سأبذل جهدي وعسى الله أن يهديه. وفي الحقيقة، منذ دخولنا بلاد الأدارسة كانت الناس تأتي إلى السيِّد أفواجًا وتقول له إنَّ السيِّد علي خرّب البلاد ونهب أموال الناس ونفى كثيرًا من الخلق ونفرت القبائل كلّها منه، وقُطعت السبل، وكَثُرَ السلب والنهب، واستفاد إمام اليمن من هذه الفوضى فصارت جيوشه تحتلّ كلّ يوم قرية من قرى الأدارسة. وبعد احتلال الحديدة احتلّوا اللُّحية وميدي ووادي مور المشهور وأغلب قرى المسارحة، ولولا أنَّ قبيلة المسارحة المشهورة وقفت من تلقاء نفسها في وجه جيوش الإمام، لاستولت في هذه الفرصة على الإمارة كلّها، وسبب ذلك كلّه هو سوء سيرة السيِّد علي، إلى غير ذلك ممّا كان السيِّد يسمعه كلّ يوم.

فخرج مولانا السيِّد من صبيًّا إلى جيزان حيث يقيم السيِّد علي، وبين صبيًّا وجيزان مسافة ستّ ساعات على الخيل، فعند وصول السيِّد إلى قرب

جيزان خرج الأمير على نفسه ومعه العساكر وقابل السيِّد مقابلة عظيمة، وأُطلقت المدافع، ونزل السيِّد في بيت الأمير. وبعد أن مضت ثلاثة أيام أخذ السيِّد يرشد الأمير لِما فيه صلاح نفسه وبلاده، ويظهر له وبال عاقبة هذه الحالة، فكان الأمير يظهر التأسّف على ما فرط منه ويَعِد السيِّد بالرجوع إلى الصواب، والحقيقة أنه كان يجاوب السيِّد وقلبه خلاف لسانه، ولم يكن له مشاور أو مجالس سوى عبيده، وكانوا مئة وعشرين عبدًا قد سلّطهم على الناس، فصاروا يفعلون ما يشاؤون، وكثيرًا ما ينزلون على إنسان في بيته ليلاً فيُنزِلَون به المصائب ولا يقدر أن يتكلّم، هذا إذا سلم من القتل. وأخيرًا صار هؤلاء العبيد يعملون ما يشاؤون بدون إذن الأمير.



حميد الدين

فلمّا علم السيِّد أنَّ الكلام لا ينفع وأنَّ النصح لا ينجع قال للأمير إنّه يودّ الرجوع إلى صبيًّا لأنَّ شتاءها أدفأ من شتاء جيزان، فرجع السيِّد إلى صبيًّا ووجد الأهالي متّفقين على مبايعة السيِّد حسن الإدريسي، عمّ الأمير، وكانت هذه المسألة قد وقعت قبل مجيء السيِّد إلى هناك بسنتين، وكان

السيِّد مصطفى ابن السيِّد عبد المتعال ابن السيِّد أحمد ابن إدريس هو الذي تولّى هذا القيام، وكان قد تمكّن، وكاد يتغلّب على الأمير، إلاّ أنَّ هذا اتّفق مع أخي السيِّد مصطفى وتغلّبا عليه أخيرًا، ففرّ السيِّد مصطفى إلى مصر، وأمَرَ الأمير، أي السيِّد علي، بسجن عمّه السيِّد الحسن.

وبقيت الحال على هذا المنوال إلى أن جاء السيِّد أحمد الشريف إلى هناك، فلمّا قطع أمله من إصلاح السيِّد علي قال للسيِّد الحسن: أنا قد عملت كلّ ما في وسعي ولكن ابن أخيك لم يسمع ولا فائدة في بقائه، وأنتم لا يمكنكم أن تتركوا هذا الأمر حتّى تصيروا أضحوكة بين الأمم، فقم ونحن معك، والكمال على الله. فقوي قلب السيِّد الحسن وجمع الناس وخطب فيهم وبايعوه في تلك الليلة، وجهّز السيِّد الحسن خمسمائة مسلّح وأرسلهم لمحاصرة جيزان، وقام الأهالي كلّهم على السيِّد علي سوى قبيلة المسارحة وأشراف أبي عريش، وهؤلاء إنّما تخلّفوا طمعًا بنهب ما بيد السيِّد علي، وبالفعل جاءوا إليه وقالوا له: إنّنا معك ولكن ليس بيدنا شيء، لا سلاح ولا زاد، فلمّا أعطاهم السلاح والزاد أخذوهما وهربوا وبقي السيِّد علي وحده مع عبيده، فاستحضر سفينة شراعية وفرّ بها إلى جزيرة قمران المشهورة وهي تحت حكم الإنكليز، فبعد وصوله إليها رأى ما لا يسرّه، فتحوّل إلى مصوّع، فتلاقى فيها مع السيِّد محمَّد السنوسي عبد العال، فأقنعه هذا بالرجوع إلى صبيًا، وقال له: أنا الكفيل لك في عمّك. فرجع السيِّد علي إلى بلده ودخل على عمّه السيِّد الحسن، فطيّب خطره، وهو بايع عمّه، وأقام مدّة بجيزان ثمَّ طلب الإذن في السفر إلى الحجاز، وذهب إليها حيث هو ضيف إلى الآن عند جلالة الملك عبد العزيز.

أمّا السيِّد الحسن، فإنّه صار يجتهد في إعادة المياه إلى مجاريها ويعيد

المنفيين، ويسكن الأمور وما قصّر في الجهد، إلاّ أنَّ القبائل أفرطت في التعصّب وصار يناظر بعضها بعضًا، وكلّ فريق يتعصّب إلى جهة، فاضطرّ أخيرًا إلى طلب الدخول في طاعة جلالة الملك عبد العزيز، وهكذا استراح هو واستراحت معه البلاد ولزمت القبائل السكون.



الأمير الحسن الرضا

وبقي السيِّد المترجَم رضي الله عنه في صبيًّا سنة ونصف سنة، ثمَّ إنَّه في أوّل شوَّال سنة ١٣٤٥ عاد إلى مكّة بالطريق التي جاء بها ونزل ضيفًا على الحكومة، وكان الملك في نجد، فقدم في وقت الموسم وقابله السيِّد ولقى منه الإعزاز التامّ، وبعد الحجّ استأذنه في التوجّه إلى المدينة المنوّرة، فأسعفه فيما طلب، وأمر بإحضار السيَّارات اللازمة له ولِمن معه، فخرج من مكّة إلى المدينة في أول صفر، وكان أمير المدينة وقتئذٍ عشاري، أحد أفراد العائلة السعودية، فأحسن استقبال السيِّد وأنزله في بيت بقرب الحرم الشريف كان ينزل به شيخ الحرم أيام الدولة العثمانية، وصار السيِّد متمتّعًا بجوار جدّه صلّى الله عليه وسلّم، وصار يقول: هذا كلّ ما كنت أتمنّاه وما كنت أرجوه من ربّي وقد حقّق الله رجائي.

ثمَّ عاودت السيِّد الحمّى في ذلك الشتاء، فألزمته الفراش ثلاثة أشهر ثمَّ أخذت تخفّ عنه، ثمَّ خرج قاصدًا مكّة ووصل إليها في ذي الحجَّة الحرام وأحرم واعتمر وبقى بإحرامه إلى أن حجّ. ثمَّ وجد نفسه ضعيفًا، فاستأذن جلالة الملك في الصعود إلى الطائف، فأسعفه فيما التمس، وصعد إلى الطائف في أواخر محرَّم فاتح سنة ١٣٤٧، وبقي فيها أربعة أشهر، ثمَّ نزل إلى مكّة وبقي بها إلى الحجّ.

وفي هذا الموسم قدم من الجزائر أبناء الأستاذ الكبير سيدي أحمد الشارف بن تكوك، وهو خليفة السادة السنوسية في ذلك القطر، ومن كبار الرجال، ويتلاقى نسبه بنسبهم الشريف في السيِّد خطَّاب، فيطلق لقب خطَّاب على الجميع، وكان هذا السيِّد يودّ جدًّا الاجتماع بسيِّدنا أحمد الشريف ولكنَّ الأقدار لم تسعفه وقد توفّي إلى رحمة ربّه سنة ١٣٤٣، وترك ثمانية من الذكور منهم السيِّدان عبد القادر ومحمَّد وهذان قدما إلى

الحجّ واجتمعا بالسيِّد ففرح بهما فرحًا لا يوصف وزال عنه بملاقاتهما شيء كثير من المرض، وكانا قدّما له شيئًا كبيرًا من الملابس والتحف ولم يقصرًا ففرح السيِّد بذلك لا فرحًا بها لنفسه حاشا ثمَّ حاشا بل ليواطئ بها بعض الأنظار الطامحة إليه مع خلوّ يده الشريفة إذ ذاك من حطام الدنيا الفانية. فصار السيِّد يفرّق هذه الملابس والتحف يمينًا وشمالا، وقدّم منها بعض الشيء لجلالة الملك ولسموّ نائبه وللحاشية ولبعض وجهاء مكّة والمدينة. ثمَّ إنَّه بعد الحجّ مكث في مكّة إلى آخر ذي الحجَّة وتوجّه إلى المدينة ومعه هؤلاء السادة، وذلك فاتح سنة ١٣٤٨، وكان امير المدينة هذه النوبة عبد العزيز بن ابراهيم، ونزل السيِّد كالعادة في بيت شيخ الحرم وبقي سبعة أو ثمانية أيام فيه ثمَّ انتقل إلى زاويته بمحلَّة العنبرية.

وشيخ هذه الزاوية هو رفيق السيِّد ووزيره من ابتداء السيِّد في الجهاد، إلى خروجه من الوطن، إلى ذهابه إلى الأستانة، فالأناضول، إلى خروجه من تركيا وذهابه إلى الحجاز واليمن. وهذا الشيخ المبارك هو الذي أكرمه الله تعالى برفقة هذا السيِّد العظيم في هذه الغربة الطويلة، ومعاضدة سيادته في أثناء شدائد يطول شرحها، كما أكرمه الله بتمريضه السيِّد في بيته وزاويته وتولّي غسله وتجهيزه بنفسه، ودرجه في قبره الشريف بيده، وكان السيِّد يقول له: أنت رفيق العمر. وقد كان السيِّد ولاّه مشيخة زاوية المدينة وكانت تداعت إلى الخراب أيام الحرب، فجدّد الشيخ محمَّد الزويني عمارتها وأعادها أحسن ممّا كانت.

ثمَّ إنَّ السيِّد، بعد أن ودّعه السادة المغاربة وسافروا، وقع مريضًا واشتدّت عليه الحمّى إلى حدّ اليأس، ثمَّ خفّت عنه الحمّى. ثمَّ ي أول الشتاء سنة ١٣٤٨ عاودته بشدّة فائقة إلى أن بقي مدّة ١٧ يومًا غائبًا عن نفسه لا

يعرف أحدًا ولا يقدر على الكلام. ثمَّ خفّت عنه الحمّى، فأشار عليه الأطبّاء بتبديل الهواء، فخرج إلى مكّة المكرّمة في شعبان ١٣٤٨، وصام رمضان بها وصلّى التراويح، وصار ينزل إلى الحرم لصلاة الجمعة، لكنّه كان لا يزال ضعيفًا عن الطواف. وهكذا إلى ذي الحجَّة.

وكان السيِّد في هذه المدّة متشبّثًا باستجلابه السيِّدة المصونة الجليلة زوجته، وهي ابنة عمّه السيِّد المهدي رضي الله عنه، وكان عَقَد له عليها ولكنَّ الحروب والأسفار والخطوب حالت دون الزواج، فلمّا حصل في الحجاز سعى في استقدامها إليه. وكان الملك عبد العزيز، أيّده الله، من أكبر المساعدين على تسهيل حضور هذه السيِّدة الكريمة. وقدمت في ذي الحجَّة سنة ١٣٤٨، ومع حضرتها أصغر أنجال السيِّد، وهو سيدي أحمد إدريس، ومعهما شقيقة السيِّد، وهي صاحبة العصمة زوجة السيِّد رضا ابن السيِّد المهدي، ومعهم نجلا السيِّد ابراهيم، أكبر أنجال السيِّد، وهما السيِّد محمَّد كامل والسيِّد محمَّد فتحي، ومعهما والدتهما. ففرح السيِّد غاية الفرح بهذا الاجتماع الغريب. وبعد نزوله من عرفة بنى بابنة عمّه، وكان يقول: لم أفرح بزواجي بهذه السيِّدة تمتّعًا بالدنيا، ولكن لرجاء لي من الله أن يجعلها من أزواجي في الجنّة، أمّا الدنيا، فلا بقي لي منها لا نعيم ولا لذّة. هذا كان كلامه رضي الله عنه. ثمَّ خرج السيِّد إلى الطائف أول المحرَّم سنة ١٣٤٩، وبقي أربعة أشهر، ثمَّ عاد إلى مكّة وأرسل العائلة تزور المدينة. وفي هذه المدّة اصطلحت صحّة السيِّد كثيرًا حتّى صار ينزل من زاويته في جبل أبي قبيس ماشيًا يطوف، وهكذا إلى وقت الحجّ، فحجّ وهو بالصحّة وبقي في مكّة إلى سنة ١٣٥٩. وفي الحجّ قدم السادة المغاربة آل سيدي أحمد الشارف بن تكوك، وهم المذكورون آنفًا، ومعهم أخواهم السيِّد العجال، والسيِّد

يوسف، ومن أولادهم السيِّد محمَّد السنوسي، والسيِّد أحمد الشريف، سمّاه أبوه على اسم السيِّد. وكان من أسباب قدومهم هذه السنة أنهم سمعوا بزواج السيِّد بالسيِّدة ابنة عمّه فجاءوا مهنّئين ومعهم من التحف والطرف شيء كثير، جزاهم الله أفضل الجزاء. وفي الحقيقة، هم السادة الكرام، وفّقهم الله للقيام بمعاضدة هذا السيِّد العظيم في هذه السنين التي طالت فيها غربته وتغيّرت صحّته وقلَّت ذات يده، مع أنه في هذا الوقت العسير نبذ الوالد ولده والولد والده. وكان من جملة الهدايا سيَّارة جميلة بقيت عند السيِّد أيامًا قلائل لأنه بلغه أنَّ أحد أنجال جلالة الملك رآها فأعجبته، ففي الحال أهداها السيِّد إلى جلالة الملك عبد العزيز، وهو، أيّده الله، أهداها ابنه الأمير منصور.

ثمَّ بعد الحجّ سافر السادة آل تكوك وبقي السيِّد في مكّة، وكانت صحّته تارةً وتارةً. وفي صفر سنة ١٣٥١، استأذن السيِّد جلالة الملك في الذهاب إلى المدينة فأذن له، وسار إلى المدينة وأقام بزاويته نحوًا من شهر، ثمَّ تحوّل إلى بيت شيخ الحرم وبقي فيه شهرين. ثمَّ رجع إلى الزاوية وبقي نحوًا من شهر. وفي هذه المدّة اصطلحت صحّته وصار يمشي قليلاً ويشتهي الطعام ويصلّي الجمعة في الحرم. ثمَّ دعاه صديقه الشيخ عبَّاس قطَّان، رئيس بلديّة مكّة، أن ينزل في منزل جميل يملكه في المدينة، فأقام به واستراح فيه كثيرًا وطالما دعا لصاحبه، وصار ينزل إلى الحرم ماشيًا. وبقي على هذه الحال إلى شعبان، فبدأت معه حمّى خفيفة ثمَّ اشتدّت، واستعمل له الأطبّاء الحقن تحت الجلد فلم ينفع شيئًا. وفي أول رمضان، أصابه زكام شديد ألزمه الفراش ثمانية أيام لكنّه بقي صائمًا، ثمَّ أخذت الحمّى تشتدّ حتّى أصبح لا يقدر على القيام لا في الصلاة ولا في غيرها. وفي العاشر من رمضان عجز عن الصيام

والحركة بالمرّة، ثمَّ خفّت الحمّى من نفسها فرجع يراود نفسه على الصيام، لكنَّ الحمّى عادت إلى الشدّة. وفي ٢١ رمضان عند الظهر، شَعَر بتنمّل في يده اليسرى، فقال له الشيخ محمَّد الزويي : لعلّك رقدت عليها. فقال له: ربّما كان ذلك. إلاّ أنه ازداد بعد ذلك التنمّل حتّى إنَّ اليد أصبحت لا تقدر على الحركة، فاستحضرنا الأطباء وقالوا أولاً إنَّ هذا تخدّر في الأعصاب من عدم الحركة وعالجوا بوسائل مختلفة. ثمَّ إنَّ هذا التنمّل سرى إلى الرجل، ولم ينتصف الليل حتّى بطلت حركة الرجل تمامًا، وعند حضور الأطبّاء الساعة السابعة ليلاً قالوا إنَّ هذا فالج.

وتعب السيِّد تلك الليلة تعبًا شديدًا حتّى إنَّنا توقّعنا حلول أجله. ولكن بعد طلوع الشمس أفاق قليلاً، وحضر الأطبّاء وفصدوا عرقه في اليد اليمنى فخرج منه دم كثير فاسد، فاستحضروا آلة كهربائية وصاروا يعالجونه بها فلم تفد شيئًا، وثقل لسانه حتّى صار لا يقدر على الكلام إلاّ بشقّ النفس، وبطل شقّه الأيسر كلّه، فطلب تحويله إلى الزاوية السنوسية، وتحوّلت معه كافّة العائلة، وبقي على تلك الحالة عشرة أيام. ثمَّ بعد هذه المدّة خفّ عن سيادته هذا النازل وانطلق لسانه الشريف، وابتدأت بعض الحركة في رجله، وبشّر الأطبّاء بزوال الخطر ولكنّهم قالوا إنَّ الأدوية والآلات اللازمة مفقودة عندهم، فالأولى به التداوي في الخارج. فأبرق السيِّد إلى جلالة الملك يلتمس منه السعي لدى الحكومة المصرية بالإذن في دخول مصر لأجل المعالجة، فأصدر الملك أمره الكريم لوزارة الخارجية لتسعى في هذا الشأن، وبقي السيِّد منتظرًا نتيجة المسعى، وكانت حالته على غير استواء، تارة تخفّ وتارة تشتدّ. ولمّا بلغ به المرض ما بلغ، طلب حضور ولده الصغير السيِّد أحمد إدريس، وكان بمكّة، وكذلك طلب ابن أخيه السيِّد محمَّد ابن السيِّد

محمَّد عابد، وكان قد أتى إلى الحجاز عن طريق السودان، وزوّجه عمّه من ابنة الشيخ علي حامد المارّ الذكر، فحضر هؤلاء السادة وكانت حالة السيِّد تتفاقم، ولازمه إسهال شديد، وظهر في رجله انتفاخ، وكان يسعل سعالاً شديدًا، وعاد الأطبّاء فقالوا إنَّ المرض استحكم وانقطعت حركة جسمه بتاتًا، وصار يصعب عليه الكلام كما أنه كان يصعب عليه فتح أعينه الشريفة، ولكنّه بقي حافظًا كمال عقله، وكانت تبدر منه نكات لطيفة ويمزح، لا سيّما في الأيام الأخيرة، فقد كان يقول لِمن يأمره بتجليسه: تعال يا فلان خذ بيدي وأجلسني، ولكن بالتي هي أحسن لا بالتي هي أخشن! وكان عندما يأتيه خليفته الشيخ الزويي يقول له: البارحة شياطينك أتعبوني، خذ لي الحقّ منهم، يريد بهم الخدّام الذين يبيتون عند سيادته، وكان يقول: أريحوني أريحوني، فنقول لسيادته: أين نريحك فيقول: حطّوني في الدكّة [1]. وكان يقول: هيّا هيّا نسافر، فنقول لسيادته: إلى أين؟ فيقول: نسافر والسلام. وكان يقول لابنه: يا ولدي، يا أحمد، أسمعني القرآن في هذا الوقت المبارك وخُذْ دعوة خير. وفي يوم من الأيام قال له: يا أحمد، أنت عمّن أخذت القرآن؟ فقال له: يا أبتِ، عنك. فقال: وأنا عمّن أخذت؟ فقال: لا أدري. فقال له: تعال اكتب سندي في القرآن وفي الطريقة لأنك ربّما تبحث عن ذلك ولا تلقاه. وقبل وفاته، رضي الله عنه، بيوم واحد قال لابنه: يا أحمد، تعال أسمعني القرآن. قال له: يا سيِّدي، ماذا أقرأ؟ قال له: اقرأ ﴿إنّما أشكو بثّي [2] وحزني إلى الله﴾ فجوَّدها، فأمره بإعادتها ثانيًا وثالثًا، فعلمنا من ذلك أنه يعزيه في نفسه في حياته قبل مماته.

(١) بناء يُسطّح أعلاه للجلوس عليه.

(٢) الضعف والعجز.

وكان بعد مضي عشرين يومًا من إصابته بهذا المرض طلب حضرة خليفته الشيخ محمَّد الزويي الساعة ثمانية ليلاً، أي بعد نصف الليل، واستدعى حضرة صاحبة العصمة زوجته الكريمة، وأحد خدّامه المسمّى سرور خير الله الزويي، وأوصاهم وأشهدهم على وصيّته، ولمّا تمّ لمرضه، رضي الله عنه، اثنان وخمسون يومًا، لبّى دعوة ربّه، وذلك في اليوم الثالث عشر من ذي القعدة سنة ١٣٥١، الموافق يوم الجمعة بعد الصلاة الساعة ثمانية عربية، وذلك في زاويته بالمدينة المنوّرة، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس الأعلى مأواه. وكان الحاضرون ساعة خروج روحه الشريفة، صاحبَتي العصمة زوجته وشقيقته وابن أخيه السيِّد محمَّد ابن السيِّد محمَّد عابد، وخليفته سيدي محمَّد الزويي، وخادمه الصادق الأمين ساقه إدريس، وخادمه سرور خير الله، والجميع أخبروا أنه لم يصالح سكرات الموت، كما يُعرف ذلك في الأموات، بل إنَّه عند آخر نفسه تبسّم ضاحكًا وأغمض عينيه الشريفتين واعترت بدنه قشعريرة وسكت سكتة واحدة، حتّى إنَّ الحكيم لمّا عاينه قال: ربّما تكون سكتة، فلا بدّ من الانتظار مقدار ساعتين، وبعد ذلك أذن بالدفن، فشُرع في تجهيزه.

وكان الواقف على تجهيزه، حسب وصيّته رضي الله عنه، هو حضرة خليفته، وهو الذي تولّى غسله بيده يساعده خدّام السيِّد، حتّى تمّ تغسيله وتكفينه في مدّة يسيرة، وأنزلت الجنازة من البيت الساعة العاشرة عربية، أي بعد العصر وازدحم الناس، وكان أمير المدينة الأمير عبد العزيز ابن ابراهيم صلّى العصر في المسجد النبوي، وبعد الصلاة نادى في المسجد قائلاً: يا مسلمين، إنَّ السيِّد أحمد الشريف السنوسي الكبير لقي ربّه، فاحضروا الصلاة عليه، فلم يخرج أحد من المسجد حتّى وصلت الجنازة، ولمّا

خرجت الجنازة من الزاوية ازدحمت عليها الناس حتّى كاد يهلك بعضها بعض، وإنَّه ليعجب الإنسان كيف اجتمعت تلك الخلائق كلّها في تلك المدّة اليسيرة، وكان للجنازة منظر مهيب لا يكاد الإنسان فيه أن يملك حواسه، وصلّى على جنازته خطيب المسجد النبوي الشيخ صالح الزغيبي، وهو رجل معروف بالدين والاستقامة التامّة، وخرجت الجنازة الشريفة من المسجد النبوي إلى البقيع[1]، وكان الخليفة الزويي استأذن من حضرة أمير المدينة في دفن السيِّد ما بين قبر سيِّدنا الإمام مالك رضي الله عنه، وقبر سيِّدنا ابراهيم، ابن سيِّدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فأذن الأمير في ذلك، وحُفر للمرحوم السيِّد في هذا المكان. وهذا المحلّ يسمّى في البقيع بالدكّة، وهي الدكّة التي كان يشير إليها في مرضه قدّس الله روحه، وهذه الدكّة منذ خمسمائة أو ستّمائة سنة لم يدفن فيها أحد، فاختارها الله لهذا السيِّد الكريم. فبين قبر السيِّد أحمد الشريف وقبر ابن رسول الله خمسة وعشرون قدمًا، وبينه وبين قبر الإمام مالك وقبر الإمام نافع ثلاثون قدمًا، والذي أسلمه في قبره الشريف هو حضرة الخليفة الشيخ محمَّد الزويي، وهو الذي لقّنه رضي الله عنه.

وبذلك تمّت حياة صاحب السيادة الكبرى والقدوة العظمى عن عمر ناهز الواحد والستّين قضاه في خدمة الدين والسهر على مصالح المسلمين، وكانت ولادته رضي الله عنه، سنة ١٢٩٠ في اليوم الثامن والعشرين من شهر شوَّال، قبيل الفجر، ببلدة جغبوب، فحياته بالضبط إحدى وستّون سنة وخمسة عشر يومًا، وقد خلف من الأولاد الذكور سبعة حفظهم الله، وجعل البركة فيهم وفي عقبهم إلى قيام الساعة، وهم السيِّد ابراهيم، والسيِّد

---

(١) مدفن الصحابة في المدينة.

محيي الدين، والسيِّد محمَّد العربي، والسيِّد عبد الله، والسيِّد محمَّد الزبير، والسيِّد القاسم، والسيِّد أحمد إدريس، والجميع متأهّلون ولهم خلف مبارك، سوى الصغيرين السيِّد القاسم والسيِّد أحمد إدريس، وله من البنات أربع، ومن الزوجات الحرائر اثنتان، هما صاحبتا العصمة ابنة عمّه السيِّد المهدي، وابنة شيخه ومربّيه السيِّد أحمد الريفي رضي الله عن الجميع، ولم



الأمير شكيب أرسلان والملك عبد العزيز

يترك من الأثاث شيئًا يذكر سوى الكتب الكثيرة، وهذه أوصى أن توقف في المدينة المنوّرة وتجعل لها مكتبة باَسمه الشريف وينتفع بها المسلمون، وهذه الكتب هي التي سعى في اقتنائها بعد خروجه من وطنه. وأمّا الكتب الثمينة ذات القيم العظيمة التي ورثها عن آبائه وأجداده، فقد بقيت في الجغبوب

واستولى الطليان على زاوية الجغبوب ولا تدري ماذا جرى بها. ولم يوجد في صندوقه، رضي الله عنه، عند وفاته سوى أربعة جنيهات ذهب وبنتو واحد، ولا يوجد شيء خلاف ذلك سوى أمانة يسيرة استودعها المحسن العظيم الحاج محمَّد علي زينل، التاجر المشهور، وهذه الأمانة هي ألفا جنيه ثمن خاتم ألماس كان أهداه لسيادته المرحوم السلطان وحيد الدين حينما قدم السيِّد إلى استنبول، وقد أوصى بأن تكون هذه الأمانة النصف منها لأولاده، والنصف الثاني يقسم بين صاحبتي العصمة زوجته وشقيقته.

وبذلك انتهت حياته البدنية وبقيت حياته الروحية والمعنوية قدوة يُقتدى بها إلى قيام الساعة، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس الأعلى مثواه، ويسّر لنا أن نحذو حذوه ونقتفي أثره آمين. انتهى ببعض اختصار.

شكيب أرسلان



ملحق

صور مختارة من المخطوط

السيد الحسن وبقيت الحال على هذا المنوال الى ان جاء السيد احمد الشريف الى هناك فلما قطعوا امله منه اصلاح السيد على قال للسيد الحسن انا قد عملت كل ما في وسعي ولكن ابن اخيك لم يسمع ولا فائدة في بقائه وانتم لا يمكنكم ان تتركوا هذا الامر حتى تصيروا محوكة بيننا الدم فتم بينهم معركة والكمال على الله فقوى قلب السيد الحسن وجمع الناس وخطب فيهم وبايعوه في تلك الليلة وجهز السيد الحسن خمسمائة مسلح واستلم لمحاصرة جيزان وقام الاهالي كلهم على السيد على سوى قبيلة المسارحة واشراف ابي عريش وهؤلاء انما تخلفوا طمعا بنهب ما بيد السيد علي وبالفعل جاؤا اليه وقالوا له انا معك ولكن ليس بيدنا شيء لا سلاح ولا زاد فلما اعطاهم السلاح والزاد اخذوهما وهربوا وبقي السيد علي وحده مع عبيده فاستأجر سفينة شراعية وفر بها الى جزيرة كمران المشهورة وهي تحت حكم الانكليز فبعد وصوله اليها رأى ما لا يسره فتحول الى مصوع فتلاقى فيها مع السيد محمد السنوسي عبد العال فاقنعه هذا بالرجوع الى صبيا وقال له انا الكفيل لك في عمك فرجع السيد علي الى بلده ودخل على عمه السيد الحسن فطيب خاطره وهو بايع عمه واقام مدة بجيزان ثم طلب الاذن في السفر الى الحجاز وذهب اليها حيث هو ضيف الى الان عند جلالة الملك عبد العزيز

اما السيد الحسن فانه صار يجتهد في اعادة المياه الى مجاريها ويعيد المنفيين ويسكن الامور وما قصر في الجهد الا ان القبائل افرطت في التعصب وصار يناظر بعضها بعضا وكل فريق يتعصب الى جهة فاضطر اخيرا الى طلب الدخول في طاعة جلالة الملك عبد العزيز وهكذا استراح هو واستراحت معه البلاد ولزمت القبائل السكون . وبقي السيد المترجم رضي الله عنه في صبيا سنة ونصف سنة ثم انه في اول شوال سنة ١٣٤٥ عاد الى مكة بالطريق التي جاء بها ونزل ضيفا على الحكومة وكان الملك في نجد فقدم في وقت الموسم وقابله السيد ولقي منه الاعزاز التام وبعد الحج استأذنه

في التوجه الى المدينة المنورة فأسعفه فيما طلب وامر باحضار السيارات اللازمة له ولمن معه فخرج من مكة الى المدينة في اول صفر وكان امير المدينة حينئذ عشاري احد افراد العائلة السعودية فاحسن استقبال السيد وانزله في بيت بقرب الحرم الشريف كان ينزل به شيخ الحرم ايام الدولة العثمانية وصار السيد متمتعاً بجوار جده صلى الله عليه وسلم وصار يقول هذا كل ما كنت اتمناه وما كنت ارجوه من ربي وقد حقق الله رجائي . ثم عاودت السيد الحمى في ذلك الشتاء فالزمته الفراش ثلاثة اشهر ثم اخذت تخف عنه ثم خرج قاصداً مكة ووصل اليها في ذي الحجة الحرام واحرم واعتمر وبقي باحرامه الى ان حج . ثم وجد نفسه ضعيفاً فاستأذن جلالة الملك في الصعود الى الطائف فاسعفه فيما التمس وصعد الى الطائف في اواخر محرم فاتح سنة ١٣٤٧ وبقي فيها اربعة اشهر ثم نزل الى مكة وبقي بها الى الحج وفي هذا الموسم قدم من الجزائر ابناء الاستاذ الكبير سيدي احمد بن الشارف تكوك وهو خليفة السادة السنوسية في ذلك القطر ومن كبار رجالها ويلاقي نسبه بنسبهم الشريف في السيد خطاب فيطلق لقب خطاب على الجميع وكان هذا السيد يود جداً الاجتماع بسيدنا احمد الشريف ولكن الاقدار لم تسعفه وقد توفي الى رحمة ربه سنة ١٣٤٤ وترك ثمانية من الذكور منهم السيدان عبدالقادر ومحمد وهذان قدما الى الحج واجتمعا بالسيد ففرح بهما فرحاً لا يوصف وزال عنه بملاقاتهما شيء كثير من المرض وكانا قدما له شيئاً كثيراً من الملابس والتحف ولم يقصرا ففرح السيد بذلك لا فرحاً بها لنفسه حاشا ثم حاشا بل ليواسي بها بعض الانظار الطامحة اليه مع خلو يده الشريفة اذ ذلك من حطام الدنيا الفانية . فصار السيد يفرق هذه الملابس والتحف يميناً وشمالاً وقدم منها بعض الشيء لجلالة الملك ولسمو نائبه وللحاشية ولبعض وجهاء مكة والمدينة . ثم انه بعد الحج مكث في مكة الى آخر ذي الحجة وتوجه الى المدينة ومعه هؤلاء السادة وذلك فاتح سنة ١٣٤٨ وكان امير المدينة هذه النوبة عبدالعزيز بن ابراهيم ونزل السيد كالعادة في بيته

شيخ الحرم وبقي سبعة او ثمانية ايام فيه ثم انتقل الى زاويته بمحلة الشبرية . وشيخ هذه الزاوية هو رفيق السيد ووزيره من ابتداء السيد في الجهاد الى خروجه من الوطن الى ذهابه الى الاستانة فالاناضول الى خروجه من تركيا وذهابه الى الحجاز واليمن . وهذا الشيخ المبارك هو الذي اكرمه الله تعالى برفقة هذا السيد العظيم في هذه الغربة الطويلة ومعاضدة سيادته في اثناء شدائد يطول شرحها كما اكرمه الله بتمريضه السيد في بيته وزاويته وتولي غسله وتجهيزه بنفسه ودرجه في قبره الشريف بيده وكان السيد يقول له : انت رفيق العمر . وقد كان السيد ولاه مشيخة زاوية المدينة وكانت تداعت الى الخراب ايام الحرب فجدد الشيخ محمد الزويي عمارتها واعادها احسن مما كانت . ثم ان السيد بعد ان ودعه السادة المغاربة وسافروا وقع مريضا واشتدت عليه الحمى الى حد اليأس ثم خفت عنه الحمى ثم في اول الشتاء سنة ١٣٤٨ عاودته بشدة فائقة الى ان بقي مدة ١٧ يوما غائبا عن نفسه لا يعرف احدا ولا يقدر على الكلام . ثم خفت عنه الحمى فاشار عليه الاطباء بتبديل الهواء فخرج الى مكة المكرمة في شعبان ١٣٤٨ وصام رمضان بها وصلى التراويح وصار ينزل الى الحرم لصلاة الجمعة لكنه كان لا يزال ضعيفا عن الطواف ، وهكذا الى ذي الحجة . وكان السيد في هذه المدة مشتغلا باستجلاب السيدة المصونة الجليلة زوجته وهي ابنة عمه السيد المهدي رضي الله عنه وكان عقد له عليها ولكن الحروب والاسفار والخطوب حالت دون الزواج فلما حصل في الحجاز سعى في استقدامها اليه . وكان الملك عبد العزيز ايده الله من اكبر المساعدين على تسهيل حضور هذه السيدة الكريمة وقدمت في ذي الحجة سنة ١٣٤٨ ومع حضرتها اصغر انجال السيد وهو سيدي احمد ادريس ومعها شقيقة السيد وهي صاحبة العصمة زوجة السيد رضا ابن السيد المهدي ومعهم نجلا السيد ابراهيم اكبر انجال السيد وهما السيد محمد كامل والسيد محمد فتحي ومعهم والدتهما . ففرح السيد غاية الفرح بهذا الاجتماع القريب . وبعد نزوله من عرفة بنى بابنة عمه وكان يقول : لم افرح بزواجي بهذه السيدة تمتعا بالدنيا ولكن لرجائي من الله ان يجعلها من ازواجي في الجنة اما الدنيا فلا بقي لي منها لا نعيم ولا لذة . هذا كان كلامه رضي الله عنه . ثم خرج السيد الى الطائف اول المحرم سنة ١٣٤٩ وبقي اربعة اشهر ثم عاد الى مكة وارسل العائلة تزور المدينة وفي هذه المدة اصطلحت صحة السيد كثيرا حتى صار ينزل من زاويته في جبل ابي قبيس ماشيا ويطوف وهكذا الى وقت الحج فحج وهو بالصحة وبقي في مكة الى سنة ١٣٥١ وفي الحج قدم السادة المغاربة آل سيدي احمد الشارف بن تكوك وهم المذكورون آنفا ومعهم

اخوانه السيد العجال والسيد يوسف ومن اولادهم السيد محمد السنوسي والسيد احمد الشريف سماه ابوه
على اسم السيد. وكان من اسباب قدومهم هذه السنة انهم سمعوا بزواج السيد بالسيدة ابنة عمه
فجاءوا مهنئين ومعهم من التحف والطرف شيئ كثير جزاهم الله افضل الجزاء. وفي الحقيقة ان السادة
الكرام وفقهم الله للقيام بمعاضدة هذا السيد العظيم في هذه السنين التي طالت فيها غربته وتغيرت
صحته وقلت ذات يده مع انه في هذا الوقت العسير نبذ الوالد ولده والولد والده. وكان
من جملة الهدايا سيارة جميلة بقيت عند السيد اياما قلائل لانه بلغه ان احد انجال جلالة الملك
رآها فاعجبته وفي الحال اهداها السيد الى جلالة الملك عبد العزيز وهو ايده الله اهداها ابنه الامير
منصور. ثم بعد الحج سافر السادة آل تكوك وبقي السيد في مكة وكانت صحته تارة وتارة. وفي
صفر سنة ١٣٥١ استأذن السيد جلالة الملك في الذهاب الى المدينة فاذن له وسار الى المدينة واقام
بزاويته نحوا من شهر ثم تحول الى بيت شيخ الحرم وبقي فيه شهرين. ثم رجع الى الزاوية وبقي
نحوا من شهر. وفي هذه المدة اصطلحت صحته وصار يمشي قليلا ويشتهي الطعام ويصلي الجمعة
في الحرم ثم دعاه صديقه الشيخ عباس قطان رئيس بلدية مكة ان ينزل في منزل جميل يملكه في
المدينة فاقام به واستراح فيه كثيرا وطالما دعا لصاحبه وصار ينزل الى الحرم ماشيا. وبقي على
هذه الحال الى شعبان فبدأت معه حمى خفيفة ثم اشتدت واستعمل له الاطباء الحقن تحت الجلد فلم
تنفع شيئا. وفي اول رمضان اصابه زكام شديد الزمه الفراش ثمانية ايام لكنه بقي صائما ثم اخذته
الحمى حتى اصبح لا يقدر على القيام لا في الصلاة ولا في غيرها. وفي العاشر من رمضان عجز عن
الصيام والحركة بالمرة ثم خفت الحمى من نفسها فرجع يراود نفسه على الصيام لكن الحمى عادت الى
الشدة. وفي ١٢ رمضان عند الظهر شعر بتنمل في يده اليسرى فقال له الشيخ محمد الزويتي: لعلك
رقدت عليها. فقال له: ربما كان ذلك. الا انه ازداد بعد ذلك التنمل ثم ان اليد اصبحت لا تقدر
على الحركة فاستحضروا الاطباء وقالوا اولا ان هذا تخدر في الاعصاب مع عدم الحركة وعالجوا بوسائل
مختلفة. ثم ان هذا التنمل سرى الى الرجل ولم ينتصف الليل حتى بطلت حركة الرجل تماما وعند حضور
الاطباء الساعة السابعة ليلا قالوا ان هذا فالج وتعب السيد تلك الليلة تعبا شديدا حتى اننا
توقعنا حلول اجله. ولكنه بعد طلوع الشمس افاق قليلا وحضر الاطباء وفصدوا عرقه في اليد اليمنى
فخرج منه دم كثير فاشتد فاستحضروا آلة كهربائية وصاروا يعالجونه بها فلم تفد شيئا وثقل لسانه
حتى صار لا يقدر على الكلام الا بشق النفس وبطل شقه الايسر كله فطلب تحويله الى الزاوية

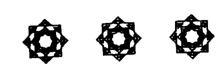


الخديوي عبّاس حلمي



الشيخ عبد العزيز جاويش

فهرست المحتويات





١٨٦٩ _ ١٩٤٦

"... طلب السيّد من القنصل التسريح بالمرور إلى الحجاز عن طريق فلسطين، فقال له القنصل: أمّا فلسطين، فالحكومة الإنكليزية لا ترضى، وأمّا الحجاز، فالشريف علي لا يرضى بمجيئك إليه. وكان الشريف علي محصورًا في جدّة، فقال له السيّد: إذًا إلى مصر. فقال القنصل: ملك مصر لا يرضى. فقال له: إذًا إلى اليمن. فقال: الحكومة الإنكليزية لا ترضى. فقال: الهند. فقال: وذلك من باب أولى. فقال: إذًا إلى العراق برًا. فقال: ملك العراق لا يرضى. والحاصل أنّ كلّ محلّ للحكومة الإنكليزية فيه يد لا تدخله بناءً على ما بُلِّغت. فعند ذلك غضب السيّد غضبًا شديدًا وقال له: إذًا مفاتيح الدنيا كلّها بيدك، أنسيت أنّ حاكم الأرض والسماء هو الله وأنّ الأمر بيده؟ أمّا أنا، فسيجعل الله لي مخرجًا، وأمّا الحكومة الإنكليزية، فسيأتي يوم تندم فيه على هذا الفعل. فعند ذلك قال القنصل للسيّد: عندكم طريق نجد، وقصد بذلك الاستهزاء، فقال له السيّد: أمّا هذه، فلا حاجة لوساطتك فيها، وأمّا كونها صعبة، فإنّني لم أعوّد نفسي التنعّم والترفّه، بل عوّدتها التقشّف واقتحام المشاق في سبيل الدفاع عن ديني ووطني، ولولا ذلك لكنت مثل الذين باعوا دينهم بدنياهم".

شكيب أرسلان